عطاء الشهادة

إعداد

يحيى قاسم أبو عواضة

إخراج

دائرة الثقافة القرآنية

عطاء الشهادة

إعداد

يحيى قاسم أبو عوّاضة

إخراج

دائرة الثقافة القرآنية

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ / ٢٠١٨م

إخراج
دائرة الثقافة القرآنية

www.d-althagafhalqurania.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله خاتم النبيين.

اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد، وبارك على محمدٍ وعلى آل محمد، كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد، وارضَ اللهم برضاك عن أصحابه الأخيار من المهاجرين والأنصار، وعن سائر عبادك الصالحين. وبعد

بمناسبة ذكرى الشهيد يسعدنا أن نقدم هذه المادة الثقافية والتي تتضمن جانبين: الأول: الحديث عن المسؤولية وأهميتها، والجانب الثاني: الحديث عن الشهادة وعظمتها، وقد اعتمدنا في ذلك على محاضرات السيد عبد الملك حفظه الله في مناسبة الهجرة النبوية لعام ١٤٤٠هـ وعلى مناسبة ذكرى الشهيد لعام ١٤٣٩هـ.

والله الموفق

***

أولاً: المسؤولية في الإسلام

قبل أن نتحدث عن مناسبة (ذكرى الشهيد) وما يتعلق بها سوف نتحدث أولاً عن المسؤولية في الإسلام وأهميتها، يقول السيد عبد الملك حفظه الله في المحاضرة الثالثة من محاضرات الهجرة:

في سياق الحديث عن المعالم الرئيسية في الإسلام، والتي تجلت في أداء وحركة وتطبيق النبي –صلى الله وسلم عليه وعلى آله– وفي حديث القرآن على نحو واسع، معلمٌ مهمٌ **جدًّا** هو المسؤولية في الإسلام، والتي هي جانبٌ أساسيٌّ لابدَّ منه، وكما قلنا في الأصالة التي تعبِّر عن حقيقة الإسلام، ومبادئه، وقيمه، وأخلاقه، وتعاليمه، وتشريعاته، لابدَّ أن نعود إلى القرآن، ولابدَّ أن نعود إلى النبي –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– من موقعه في القدوة والقيادة والهداية، فبذلك نتخلص من كل أشكال الزيف والخداع والتضليل التي تعتمد عليها قوى الطاغوت والنفاق لتفريغ الإسلام من محتواه المهم، ومن ثمرته العظيمة والمهمة في الحياة.

من جوانب المسؤولية: هو أننا في انتمائنا إلى هذا الدين، وفي هذا الدين: في مبادئه، في قيمه، في أخلاقه، في تعليماته، في تشريعاته، في توجيهاته، فيه ما لا يرضي قوى الطاغوت، ولا قوى النفاق، ولا كل القوى الشيطانية، تلك التي ترى في كثيرٍ من: مبادئ الإسلام

المهمة، وتشريعاته العظيمة، وتوجيهاته الحكيمة، ما تعتبره يضر بمصالحها، يحد من هيمنتها ونفوذها وتسلطها؛ لأن الواقع البشري لا يخلو أبدًا من وجود قوى شر، من وجود فئات واسعة من البشر، اتجاههم في هذه الحياة اتجاه منفلت، لا ينضبط على أساس المسيرة الإيمانية والدينية، لا يلتزم لا بمسألة حلال، ولا حرام، ولا حق، ولا باطل، ولا...

كل هذه الاعتبارات ليس لها بالنسبة له أي قيمة ولا أي أهمية، ينطلق في واقع هذه الحياة من أهدافه الشيطانية، من أطماعه، من أهوائه، من رغباته، ويتجه في هذه الحياة بناءً على ذلك، وليس بناءً على الالتزام بأمر الله، وتوجيهات الله، وهدي الله، والسير بالتزام وانضباط وفق تعاليم الله، قد يأخذ منها البعض: ما لا يراه متناقضًا بمفرده إذا فصل عن بقية الدين مع ما هو عليه، وقد يحرف من البعض الآخر- **كذلك**- بما يراه مناسبًا مع أهدافه وآماله وطموحاته، ولكن سيبقى دائمًا يواجه مشكلة مع: مبادئ مهمة، نصوص أساسية، تعليمات وتشريعات مهمة **جدًّا**؛ فيفتضح في كونه له موقفٌ منها، وغير منسجم معها.

المجتمعات الملتزمة بالدين تجد نفسها في صدام مع قوى الطاغوت

فعندمـا يأتي مجتمع معين، أو أمة معينة تتجه في هذه الحياة على أساس الالتزام بدين الله، على أساس الاتباع لرسول الله -صلوات الله عليه وعلى آلـه- والاهتداء بكتاب الله، تلقائيًا ستجد نفسها في صدام مع تلك القوى المتسلطة والطاغوتية والشيطانية، ستجد نفسها على خلاف ومشكلة كبيرة معها، وبالذات على المسائل المهمة والأساسية والمعالم الرئيسية في هذا الدين، مبادئ مهمة وعظيمة مصلحة لحياة البشرية، مصلحة لحياة الإنسان، ولكن بقدر ما هي عظيمة ومهمة وإيجابية ومثمرة ومفيدة ومصلحة لهذا الواقع، بالقدر نفسه ينزعج منها أولئك المتسلطون والمجرمون والطغاة والمفسدون.

عندما نعرف أنَّ هذا الدين دينٌ يسعى إلى إقامة العدل، أمامك فئة واسعة من المتسلطين الظالمين، تلقائيًا تصبح على مشكلة معهم، أنت تسعى بحكم انتمائك إلى هذا الدين لإقامة العدل، وهم هناك طغاة، متسلطون، ظالمون متجبرون.

عندما نرى أنَّ هذا الدين يسعى إلى إصلاح البشرية، وبقيم عظيمة ومهمة، هناك فئات أخرى فاسدة في نفسها ومفسدة لغيرها، لا تكتفي بأنها هي فاسدة، وتعتبر كل المساعي الرامية لأن تسود مكارم الأخلاق والقيم الفاضلة في واقع البشرية، ترى فيها تهديدًا

لها وتهديدًا لسياساتها، وتناقضًا مع اتجاهها بكله، تلقائيًا يحدث هذا التقاطع، وينتج عنه الصراع في النهاية، وهكذا عندما نأتي إلى مسألة أن من المبادئ الرئيسية في هذا الدين هو تحرير الإنسان من العبودية لأخيه الإنسان، وأن يكون الإنسان عبدًا لله، تأتي قوى الطاغوت التي ترى أنها لا تتمكن من الوصول إلى كل أهدافها في السيطرة التامة إلَّا باستعباد الناس بشكل أو بآخر، فترى نفسها في خصومة مع من يتجه بخلاف ذلك.

فإذًا عندما يتجه أي مجتمع معين لينطلق على أساس هذا الدين كما هو في قرآنه وفي حركة رسوله، وليس بحسب الزيف، وليس بحسب الأكاذيب التي كُذِب بها على رسول الله، مما تناقضت مع حركته ومع رسالته، بل مع ما ثبت عنه، مع كتاب الله، الرسول -صلوات الله عليه وعلى آله- فيما ثبت عنه، وفيما قدَّمه القرآن عنه، والقرآن الكريم فيما فيه من مبادئ وقيم، وما فيه من هدى، هذا المجتمع سيواجه المشاكل الكبيرة هنا أو هناك.

ومن الطبيعي في واقع الحياة أن يواجه الإنسان مشاكل كهذه، والإنسان حتى لو لم ينطلق على أساس هدى الله، وقرر أن يتغاضى، وأن يتماشى في واقع هذه الحياة كما يريده الآخرون منه، كل قوى الطاغوت والاستكبار والفساد والإجرام، هل ستحل مشكلة الإنسان؟ (لا)؛ **لأن تلك في الأساس هي المشكلة، أي**: ليس الهدى،

وليس الحق، وليس القرآن، وليس الرسول هو المشكلة. (لا)، المشكلة هناك، مشكلة فيما عليه المتسلطون، الطغاة، المجرمون، الظالمون، المفسدون، وما يفعلونه هم هو يمثِّل المشكلة، فالإنسان حتى بدون الهداية، بدون الرجوع إلى الرسول والقرآن، لن يعيش واقعًا مطمئنًا ومستقرًا. لا أبدًا، إنما معناه أن يعيش ضحيةً لتسلط الطغاة والمجرمين والظالمين والمفسدين، وأن يتحوَّل في واقعه في هذه الحياة إما إلى عبد مستغَل لهم، وأداة في أيديهم، ويعيش بذلك حياةً سيئةً جدًّا، مستغلًاً بكل ما تعنيه الكلمة، ومحطًا لسخط الله، ثم يكون قد خسر آخرته، ويكون مصيره في الآخرة إلى جهنم -والعياذ بالله- أو أن يعيش في هذه الحياة ضحيةً للقهر والإذلال، وقد يسحقونه بكل بساطة.

الإسلام يشكل حماية من تسلط الطغاة الظالمين

فالدين في نفسه بقدر ما هو لصالح هذا الإنسان، بما فيه من: تشريعات، وتوجيهات، وأوامر، ومبادئ من الله -سبحانه وتعالى- فيها الخير لهذا الإنسان، فيها الكرامة لهذا الإنسان، فيها الحرية لهذا الإنسان، فيها العزة لهذا الإنسان، فيها مصلحة هذا الإنسان الحقيقية والفعلية في الدنيا والآخرة، **أيضًا** هذا الإسلام العظيم يشكِّل حماية لهذا الإنسان، لأي مجتمع يتمسك به من أن يقع فريسة سهلة ولقمة سائغة للمتسلطين والشيطانيين والظالمين

والمجرمين، فيمكن لأي أمة ولأي مجتمع يتمسك بهذا الهدى أن ينعم به، وأن يقوى به؛ **لأن** من الأشياء البديهية هي: هذا الصراع الذي سيحدث، وهذا ملحوظ في القرآن الكريم وفي هذا الدين العظيم، ملحوظ أن الإنسان الذي ينتمي إلى هذا الدين، أن المجتمع الذي ينطلق على أساس هذا الدين، أن الأمة التي ستتحرك في حياتها على أساس هذا الدين ووفق هذا الدين، ستواجه تحديات، وأخطار، ومشاكل، وصعوبات، و...إلخ. هذا ملحوظ، وبما أنه ملحوظ فهناك مساحة كبيرة من التعليمات والتوجيهات التي تبني الأمة لتكون قوية في مواجهة التحدي، وكيف تخوض هذا الصراع بجدارة وكفاءة عالية، إضافة إلى وعد الله -سبحانه وتعالى- بالمعية والمعونة والنصر.

فنحن نقول: عندما تتجه أمة على هذا الأساس، ستواجه المشاكل والتحديات، وتخوض الصراع الذي لابدَّ أن تخوضه، البعض من الناس تعتبر هذه المشكلة بالنسبة لهم مؤثِّرة عليهم، على توجههم، على مصداقيتهم، على ثباتهم، ويتجهون للانحناء والخضوع لقوى الطاغوت، والتنازل عن مبادئ مهمة من هذا الدين، والقرآن الكريم عبَّر عن هذه الفئات، كما في قول الله -سبحانه وتعالى-: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾**[الحج: من الآية١١]، **وكذلك يقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾**[العنكبوت: من الآية١٠].

من الناس من هو على هذا النحو: يريد أن يتحرك في هذا الدين، لكن دون أن يتحمل مسؤولية في مقارعة الظلم والاستكبار والطاغوت، في العمل على إقامة الحق والعدل، في التصدي للطغاة والمتسلطين والظالمين، الذين يسعون إلى استعباد الناس من دون الله، يريد دينًا مجردًا من المسؤولية، وخاضعًا لطبيعة الظروف، فإذا كان سيواجه تحديات أو أخطارًا لم يعد هناك بالنسبة له من ضرورة لمبادئ معينة من هذا الدين، إما للدين جملةً وتفصيلًا، فهو مستعد أن يرتد عنه بالكامل، وإما لمبادئ أساسية ومهمة للغاية من هذا الدين لها دور حيوي وفعَّال في هذا الدين، ينتج عنها ثمرة هذا الدين في واقع الحياة، فلا بأس- **مثلا**- سيتنصل عن كل ما هو مهم وعظيم في الإسلام، ويبقى بالنسبة له بقايا من هذا الإسلام فصلت عن جوانب أخرى أساسية، ففقدت أثرها المفترض والطبيعي في واقع هذه الحياة في نفس الإنسان وفي واقع الحياة.

فالفئة هذه من الناس فئة لا تنطلق على أساس ما عليه هذا الدين في مبادئه وقيمه وأخلاقه، وفيما كان عليه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي بقي طيلة فترة بقائه في مكة على صلابة وثبات عظيم لا نظير له، ثم هاجر وواصل المشوار مجاهدًا في سبيل الله، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، يخوض الصراع مع كل قوى الطاغوت على أشده، وبكل المستويات، وبكل الوسائل المشروعة.

الفئة التي تتجه هذا الاتجاه السلبي في القعود والجمود والتنصل عن المسؤولية، والمداهنة للطغاة، وتجريد الإسلام من جانب المسؤولية بكل ما فيه، هي لا تعبِّر عن حقيقة الإسلام أبدًا أبدًا، هي تعبِّر عن اتجاهها المزاجي، الذي ينبع من ضعفها، وحتى من ضعف وعيها، وقلة إيمانها، ومستوى إدراكها ومعرفتها بأهمية تلك المبادئ، وتلك القيم، وتلك الأخلاق، وتلك التشريعات، وتلك التوجيهات من الله -سبحانه وتعالى- فإذًا هي في اتجاه خاطئ وشاذ عن مسيرة هذا الإسلام، لا ينبغي أن تكون في موقع القدوة، ولا في موقع التأثر، ما كان منها باسم شخصيات علمائية، أو مثقفة، أو فكرية، وما كان منها بأي شكلٍ من الأشكال، هي في الاتجاه الخاطئ بكل ما تعنيه الكلمة.

الأمة اليوم في أمسِّ الحاجة إلى جانب المسؤولية

نأتي إلى الإسلام، ليست فقط المسألة في حدود أنك ستثبت على هذه المبادئ، بل تسعى لإقامة هذه المبادئ في واقع الحياة، عندما يقول الله: ﴿كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾[النساء: من الآية ١٣٥]، (قَوَّامِينَ)، وليس (رقَّادين) ومتنصلين عن المسؤولية، ومتهربين من أداء الواجب، عندما يأتي القرآن الكريم ليقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: الآية ١٠٤]، عندما نجد الكثير من الآيات التي توجِّهنا بالجهاد في

سبيل الله -سبحانه وتعالى- وفق ما في القرآن، الجهاد القرآني، ليس جهاد الدواعش والتكفيريين، جهاد في خدمة أمريكا وإسرائيل وعملائهما. (لا)، الجهاد بالمفهوم القرآني الذي يحمي الأمة من الطاغوت، من الاستعباد، من القهر، من الإذلال، الذي تكسب به الأمة المَنَعَة في مواجهة التحديات والأخطار التي تستهدف: حريتها، واستقلالها، وكرامتها، وعزتها، وأرضها، وعرضها... وسائر حقوقها.

فهذا الجانب جانبٌ أساسيٌّ في الدين وردت بشأنه تعليمات وتوجيهات كثيرة جدًّا، مع أنه هُمِّش في الخطاب الديني لكثير من الناس ممن يتحدثون باسم الدين، وينطقون عن الدين، أو حُرِّف في إطلاقه على غير واقعه، وعلى غير مصاديقه، لدى البعض الآخر كما هو الحال بالنسبة للتكفيريين.

الأمة اليوم في أمسّ الحاجة إلى جانب المسؤولية كَمَعلَم أساس من المعالم الرئيسية في الإسلام في حركة رسول الله، وفي كتاب الله؛ لأن الأمة تواجه تحديات فعلية، وخطيرة جدًّا عليها، إذا لم تتجه هذا الاتجاه المسؤول؛ ستقع ضحية لسيطرة الطاغوت، ستسحق، ستظلم، ستهان، وهي تظلم حاليًا، والأعداء يسعون إلى استحكام السيطرة عليها استحكامًا تامًا، والمسألة لا تبقى فقط في الجانب الديني في جوانبه الروحية أو الجوانب الأخرى. (لا)، الطاغوت يشكّل خطرًا على الناس في حياتهم، في أعراضهم، في مصالحهم، في أرضهم.

عندما تأتي مثلا: إلى دراسة طبيعة وتأمل في طبيعة السلوك الأمريكي والسلوك الإسرائيلي، ما الذي يسعى له؟ هل فقط يسعى إلى منعك من بعض العبادات، أو أنه يتجه إلى أشياء أخرى **أيضًا؟** إنما يريد أن يحول بينك وبين مبادئ أساسية، إذا كنت عليها بنتك، وكنت بها قويًا في مواجهته، وفي دفع تسلطه، في النهاية هو يريد أن يسيطر عليك أنت، تكون في هذه الحياة له، تعمل ما يريده هو منك، تتحرك وفق ما يريده هو منك، ويسعى إلى السيطرة على أرضك، على ثرواتك، على كل شيء.

فالدين لا تكون الفائدة منه خارج نطاق قوة الإنسان، عزة الإنسان، كرامة الإنسان، حرية الإنسان، بل هذه هي غاية رئيسية من الدين، وتتجه كل جوانبه- في نهاية المطاف- إلى ما فيه مصلحة هذا الإنسان؛ **لأن** الله غنيٌ عن هذا الإنسان، ليس بحاجة إلى تديُّننا، ولا إلى عبادتنا، ولا إلى صيامنا، ولا إلى صلاتنا، ولا إلى أي شيء، هو الغني، نحن من نحتاج إليه.

يتجه الجانب التربوي ليهذِّب هذا الإنسان، الجانب الروحي- كذلك- ليصلحه، ثم تأتي تشريعات وتوجيهات عملية تساعد هذا الإنسان في أداء دوره في هذه الحياة كخليفة لله في الأرض بشكل صحيح، وبكل عزة وكرامة، وبما فيه الخير له في الدنيا والآخرة، والله يدعو إلى المغفرة، إلى الرحمة، إلى الجنة، إلى الخير، والطاغوت

والشيطان إنما يسعى بالإنسان إلى ما فيه هلاك هذا الإنسان، وشقاء هذا الإنسان، وخسارة هذا الإنسان في الدنيا والآخرة، والاستغلال لهذا الإنسان فيما عواقبه سيئة عليه.

البعض يريدون إسلامًا ليس فيه مسؤولية

لا يروق للكثير من أبناء أمتنا هذا التوجه المسؤول، لا يروق لهم، ونسبة كبيرة **جدًّا** من أبناء الأمة هي متجهة في واقع حياتها، في طريقتها في التدين، بناءً على شطب هذا الجانب بالكامل، **بمعنى**: الكثير من أبناء الأمة الإسلامية يريدون إسلامًا ليس فيه أي مسؤولية، إسلام فيه الصلاة والصيام وبعض العبادات، ولا يزال بعضهم اليوم بالكاد يقوم حتى بهذه، بقية الجوانب الأخرى لا يريد أن يكون له أي دور فيها، ولا أن يتحمل فيها أي مسؤولية نهائيًا، ولا يلتفت بأي شكلٍ من الأشكال لا إلى مسألة الجهاد، وإقامة العدل، وإقامة الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفق مفهومها الصحيح القرآني، وليس المفهوم المحرف الداعشي والتكفيري، أو المفاهيم التي يقدِّمها الجامدون، والذين يسعون إلى أن يجمِّدوا حتى هذه المفاهيم الفاعلة والحيوية والعظيمة والمهمة، وأن يطبعوها بطابعهم في الجمود، والسكوت، والقعود، والتخاذل، والتنصل عن المسؤولية. (لا)، بمفهومها الصحيح القرآني، بمفهومها الذي نرى فيه القدوة الأول والعظيم رسول الله -صلى الله وسلم عليه وعلى آله-.

لا يروق للبعض من الناس أن يسمع حتى الكلام عن هذه المواضيع، ولا أن يحضر مسجدًا فيه خطبة تتحدث عن هذا الموضوع، أو فيه نشاط تثقيفي يركِّز على هذا الجانب، ولكن إذا قرَّر الإنسان أن يتجاهل هذه المسألة، هل سيفيده ذلك، هل سيعفيه ذلك أمام الله -سبحانه وتعالى- عن تحمل المسؤولية، وعن الحساب والجزاء يوم القيامة؟ (لا)، (لا).

القرآن عندما يخاطبنا عن مدى أهمية هذه المسألة وموقعها من الدين نفسه، نرى الشيء العجيب، نرى مثل قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران: الآية ١٤٢]، **(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ)**، الذين يريدون الاقتصار على بعض من الدين، وشطب كل الجوانب الأخرى المهمة والكبيرة في هذا الدين، **فيقول لك:** (الحمد لله أصبحنا نصلي ونصوم، الحمد لله خلاص يجب أن تكون أبواب الجنة مفتحة لنا، وأول ما نصل ندخل بكل سرعة، أو من باب الطوارئ، إذا هناك باب طوارئ، بكل استعجال) الله يقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، **يعني**: لابدَّ من هذا الجانب من الدين، جانبٌ أساسيٌّ لابدَّ منه في أن يتقبل الله منك دينك، في أن يتقبل الله منك عملك، في أن تكون من عباد الله المتقين، في أن تكون فعلًا مطيعًا لله، لا تكون

من العصاة الذين عصوا الله –سبحانه وتعالى– في جوانب أساسية، وتوجيهات إلزامية ومهمة وعظيمة.

ونجد مثلاً أن **البعض** يريدون إيمان الأعراب، ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ • إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحجرات: ١٤-١٥]، البعض يريدون في مسيرة حياتهم هذا الاتجاه الذي يتنصلون فيه عن المسؤولية، والذي يقتصرون فيه على بعضٍ من الدين، والبعض الآخر (لا)، البعض الآخر هلكوا بالاتجاه المنحرف والمحرِّف على مثل ما عليه التكفيريون، الذين يحرِّفون حتى جانب المسؤولية، فيجيِّرونه ويسخِّرونه لخدمة أعداء الأمة، وللإضرار بالأمة.

هذا الجانب الأساس الذي يحاول الكثير أن يتهرب منه، وأن يتنصل عنه، بالرغم من المساحة الواسعة في القرآن الكريم للحديث عنه، وبالرغم من أنه **أيضًا** في حركة رسول الله، ونشاط رسول الله، وعمل رسول الله، أخذ مساحة كبيرة وبارزة في حياة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– وهو القدوة، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[الأحزاب: الآية٢١]، هو هذا الجانب، جانب مهم بحساب الدين، نحتاج إليه لأن نؤدِّي ديننا بشكل صحيح يقبله الله منا، وجانبٌ ضروريٌ في واقع

الحياة، لا يمكن أن ندفع عن أنفسنا الاستعباد، ولا الظلم، ولا الذل، ولا الهوان، ولا القهر، ولا الاضطهاد، إلّا بإحياء هذا الجانب، إذا عطّلنا هذا الجانب؛ تحوّلنا في هذه الحياة إلى واقع بئيس- بكل ما تعنيه الكلمة- تحت سيطرة مطلقة للطاغوت والاستكبار، وأصبحنا ضحية للطغاة والمتسلطين والظالمين، يستعبدوننا، ويذلوننا، ويعملون بنا كلما يشاءون ويريدون، ونحن في موقع الضعف والاستكانة والذلة، وليس في موقع القوة(١).

مساحة المسؤولية في القرآن الكريم

يقول السيد عبد الملك حفظه الله في المحاضرة الرابعة من محاضرات الهجرة:

أوسع مساحة في القرآن الكريم في الجانب العملي تحدثت عن جانب المسؤولية، بأكثر مما تحدثت عن أي فريضة أخرى، الحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة العدل، والجهاد في سبيل الله، ومقارعة الطغيان والاستكبار والظلم والفساد، المساحة التي ركّزت عليه في القرآن الكريم أوسع بكثير بكثير مما تحدث القرآن فيه عن أي فريضة أخرى، سواءً عن صلاة، عن صيام، عن زكاة، عن حج، عن شعائر معينة أو عبادات معينة، والإسلام دين مترابط، إذا فصل

(١) المحاضرة الثالثة من محاضرات الهجرة للسيد عبد الملك حفظه الله.

جانبٌ منه عن الجوانب الأخرى؛ **فَقَدَ** ذلك الجانب المتبقي أثره في الحياة إلى حد كبير، يبقى آثار ضئيلة **جدًّا**، ضئيلة للغاية، إذا فُصِل الجانب الروحي والتربوي منه عن جانب المسؤولية، وعن جانب المنهج العملي في الحياة؛ أصبح غير مجد، وأمكن حتى استغلاله. يمكن للمساجد أن تستغل من قبل الطغاة؛ فتتحول منابرها إلى منابر تدجين، يمكن لشعائر الصلاة أن تتحول إلى مجرد عملية تجميع للناس ليحضروا إلى عند ذلك المُضِل الذي يرتقي المنبر ويصعد عليه ليبث أفكاره الظلامية؛ **فيدجِّن** الناس للطاغوت والاستكبار، ويخدرهم لتعطيلهم عن كل شعور بالمسؤولية، يمكن- **كذلك**- لشعائر الحج أن تستغل بالقدر الذي استغلت عليه في زمن الجاهلية، يمكن لأي شعيرة دينية أن تستغل إذا فُصِل الجانب التربوي والروحي عن جانب المسؤولية، عن الجوانب الأخرى، عن الالتزامات العملية.

الصلاة ما هو المطلوب منها؟ فقط الحصول على الأجر؟ الحصول على الأجر يتأتى إذا أثمرت الصلاة ثمرتها، أن تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإذا كانت الساحة مليئة بالمنكر، وصلاتك هذه لم تربك تربيةً إيمانية، ترقى بك إلى أن يكون لك موقفٌ من المنكر، معناه: أنها صلاة عديمة الجدوى، غير مقبولة عند الله، غير مثمرة، وعليك أن تحرص كيف تكون صلاتك هذه مثمرة، ومرتبطة بواقع عملي. الدين مترابط، من يسعى لبتر هذا الجانب، أو لبتر هذا الجانب، أو

التخلص من هذا الجانب؛ هو يجني على الدين بكله، على نفسه، على الأمة من حوله.

كذلك جانب المسؤولية لا يمكن الانطلاق فيه مع البعد عن الجانب التربوي والروحي والأخلاقي. (لا)، يتحول جانب المسؤولية- مجردًا عن الجانب التربوي والروحي- إلى ميدان - **كذلك**- ميدان يتحرك الإنسان فيه بكل قصور، لا يمتلك لا الروحية، ولا القيم التي تؤهله لأداء سليم ومستقيم، وبدافعٍ صحيح وسليم، يتحول- **كذلك**- إلى وسيلة للتسلط والاستغلال، فالترابط هذا في الدين هو ما عمل عليه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وبنى الأمة على أساسه.

منهجية القرآن لرسول الله أمام استهداف الأعداء للأمة

في ظل واقعٍ كهذا كيف نتحرك؟ من هو قدوتنا؟ ما هي المنهجية التي ينبغي أن نتبعها؟ ما هي الرؤية التي ينبغي أن نعتمد عليها؟ نعود إلى رسول الله -صلوات الله عليه وعلى آله- نعود إلى القرآن الكريم، ماذا فعل رسول الله؟ ما الذي وجهنا إليه الله في القرآن الكريم؟ هل وجهنا بالقعود والسكوت والجمود والاستسلام؟ هل أمرنا بالخنوع والخضوع للطغاة؟ هل علّمنا في القرآن الكريم أن نكون أمة ميتة الإحساس، ميتة الشعور، غافلة عن أعدائها، لاهية

بالأشياء التافهة في واقع حياتها، وغير متنبهة إلى الواقع من حولها؟ هل علّمنا أن نبني واقعنا لنكون أمةً ضعيفةً عاجزةً، تتجه إلى الاعتماد على أعدائها في كل شيء، أم أنَّ للقرآن منهجًا آخر، غير هذا المنهج الذي يحدثنا به الكثير من الضالين، من المرجفين، من المنافقين، من الذين في قلوبهم مرض، من الخانعين، من الجاهلين...؟ أم أنَّ للرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- في مسيرته العملية، في تطبيق القرآن، وفي إقامة هذا الدين، سيرةً مختلفة عما يحاول الآخرون باسم الدين، أو تحت عناوين أخرى أن يخدعونا به لتدجيننا لصالح أعدائنا؟

عودة بسيطة إلى القرآن الكريم تجد سوَرًا بأكملها تبني واقع هذه الأمة على درجة عالية من: الانتباه، واليقظة، والحذر، والوعي، والاحساس العالي بالمسؤولية، والسعي لأن تكون أمةً قوية، وأن تكون أمةً حرةً وعزيزةً وأبيةً وثابتةً في وجه أعدائها، وأن تحمل في مشاعرها العزة، والقوة، والحرية، والإباء، وأن تتحرك بكل جدية في مواجهة التحديات والأخطار التي يستهدفها بها أعداؤها.

عندما نعود إلى القرآن الكريم، مثلا: في سورة التوبة، سورة التوبة من أولها إلى آخرها سورة استنفار، سورة تعبئة، سورة تحفيز، سورة تعطي وعيًا عاليًا عن العدو، وكيف ينبغي أن نكون في مواجهة العدو، سورة واحدة، عندما نأتي إلى القرآن الكريم سنرى كيف هو موقف القرآن الكريم من الجهات التي تسعى بأن تتجه بالأمة أثناء

التحديـات، وعندما يوجد الخطر، إلى اتجاهات: الخنوع، والجمود، والاستسلام، والتخاذل، والتنصل عن المسؤولية... كيف يتخاطب معها القرآن الكريم، كيف يصنِّفها، كيف يعتبر موقفها شاذًا بكل ما تعنيه الكلمة، لا هو ينسجم مع الفطرة، ولا هو ينسجم مع الإنسانية، ولا هو ينسجم مع الدين، موقف سيء، سلبي، خاطئ بكل ما تعنيه الكلمة، لا يمثِّل أي خير، ولا أي مصلحة للأمة.

القرآن الكريم يحيي حالة النفير ويذم حالة التخاذل

نأتي إلى بعضٍ من النصوص القرآنية في سورة التوبة؛

يقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ • إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التوبة: ٣٨-٣٩]، هذه الآية بخطابها هذا المؤثِّر والمستنفر الذي يحيي في الأمة حالة النفير، حالة اليقظة العالية، الذي يخرج الناس من حالة الغفلة والجمود، هو يأتي ليتخاطب وليواجه حالة: هي حالة التثاقل، أي: ليست بالدرجة التي تصل إلى حد التنصل الكلي عن المسؤولية. لا، مسألة التثاقل.

البعض- مثلًا- يتنصل كليًا عن المسؤولية، عازفًا نهائيًا عن أن يكون له أي موقف، عن أن يلتفت- **أصلا**- إلى هذا الموضوع.

البعض قد يكون لا بأس متفاعلًا، لكن بشكل بطيء، وبشكل متثاقل، حتى حالة التثاقل حالة غير مقبولة- نهائيًا- في الإسلام، الحالة التي يُبنى عليها واقع المجتمع الإسلامي إذا كان متفاعلًا مع هدى الله، ومقبلًا إلى آيات الله، غير معرض عنها، أن يعيش هذه الروحية العالية من: التفاعل، والاستجابة، واليقظة، والانتباه، والمبادرة، والمسارعة، وليس في حالة من: التثاقل والتباطؤ؛ **لأن** طبيعة هذه المسؤولية، ومستوى الأخطار يقتضي من الأمة أن تكون يقظة ومبادرة ومسارعة، وألَّا تكون على هذا النحو من التثاقل والتباطؤ في مواجهة الأخطار، وأمام التحديات؛ يسبب للأمة نكبات كبيرة، أحيانًا في فارق البعض من الوقت تُنكب أمة، تخسر معركة؛ وتتيه وتتحمل تبعات كبيرة **جدًّا** نتيجةً لتثاقلها.

﴿**مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ**﴾، هذه الحالة هي حالة غير صحية، غير سليمة، غير إيجابية، أين هذا المنطق من منطق من يثبط، من يخذِّل، من يجمِّد الناس، من يميت فيهم روح المسؤولية والإحساس بالمسؤولية. ﴿**إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾، هذا وعيد إلهي، وعيدٌ بالعذاب من الله، وعيدٌ لمن؟ للكافرين، لليهود، للنصارى؟ هذا وعيد للذين آمنوا، للذين يصلون ويصومون ويزكون، ويعملون بعض الأعمال بصفة أنها أعمال صالحة، ولكنهم لا يريدون

الجهاد في سبيل الله، لا يريدون أن يتحملوا مسؤولية أمام التحديات والأخطار التي تعاني منها الأمة، وستؤدي إلى ضياع هذه الأمة، وضياع كل ما لديها، يريدون إسلامًا لا مسؤولية فيه، لا تحرك فيه، لا موقف فيه... هذه النوعية من الناس موعودون من الله بالعذاب، ﴿إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

حينها لا تغني عنكم صلاتكم، ولا يغني عنكم صيامكم، ولا تغني عنكم أعمالكم من النوافل والمستحبات؛ **لأنكم** فرطتم في فريضة مهمة جدًّا، هي تُدلل على مدى مصداقية الإنسان حتى في انتمائه الإيماني، في مصداقيته مع الله -سبحانه وتعالى- فالله يتوعد بالعذاب في خطابه للذين آمنوا، للمنتمين إلى هذا الدين، لأولئك الذين يذهبون إلى المساجد ويعودون منها، ولكن لا يريدون أبدًا أن يتحملوا هذه المسؤولية، ولا أن يلتفتوا إليها.

القعود انحراف عن خط رسول الله

ثم نأتي أيضًا في القرآن الكريم، في نفس سورة التوبة تجد الآيات التي تبين كيف هو اتجاه رسول الله -صلوات الله عليه وعلى آله- وأن الحالات التي يتجه فيها البعض متنصلًا عن المسؤولية، متهربًا من أداء هذه المسؤولية، هي اتجاه منحرف، أولئك لا يقتدون برسول الله، من يسلكون سلوك الجمود والقعود والتخاذل هم لا

يقتدون برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- من كان منهم باسم عالم، أو متعلم، أو مرشد، أو خطيب جامع، أو إمام مسجد، أو أيًّا كان، بأي صفة كان، هو لا يقتدي برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- الله يقولُ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾[التوبة: من الآية١٢٠]، ما ينبغي لهم أبدًا أن يتخاذلوا عن الجهاد، في الوقت الذي كان مَنْ يدعو إلى الجهاد، ويقيم فريضة الجهاد هو رسول الله، الذي هو القدوة والأسوة، والذي يجب أن يحذوا الناس حذوه، أن يقتدوا به، عندما تريد أن تمتنع عن أداء هذه الفريضة، وقدوتك في أدائها والقيام بها هو رسول الله الذي كان مجاهدًا، داعيًا إلى الجهاد، قائدًا للجهاد، محرِّكًا للأمة في الجهاد في سبيل الله، فتأتي أنت إما لتقعد، وإما لتثبط الآخرين **أيضًا**، ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾، ما يليق بهم أبدًا، ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ﴾، **أيضًا** الأمة بكلها- من بعد رسول الله إلى قيام الساعة- ما ينبغي لها أن تتثاقل، ولا أن تتخاذل، ولا أن تثبط، ولا أن تجمد، ولا أن تشطب المسؤولية في الدفاع عن: (**نفسها، ومبادئها، وقيمها، وعرضها، وأرضها، وحريتها، واستقلالها**)، من خلال الجهاد في سبيل الله، الذي يوفر لها المَنَعَة والحماية، ويدفع الخطر عنها، ما ينبغي لها أن تتنصل عن هذه المسؤولية؛ لأن القدوة في أداء هذه المسؤولية والقيام بها، وباعتبارها فريضةً إلهية، هو رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ • وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[التوبة: ١٢٠-١٢١]، فالمؤمنون عليهم أن يقتدوا برسول الله، وأن يدركوا أن كل عناء في سبيل أداء هذه المسؤولية، وكل مشقَّة يقابلها مكافأة عظيمة من الله، يقابلها الأجر، يقابلها الفضل، يقابلها الرحمة، يقابلها المكافأة بالنصر والعزة والكرامة، يقابلها حُسن ثواب الدنيا وحُسن ثواب الآخرة، يقابلها الخير كل الخير فيما وعد الله به الأمة إذا استجابت، إذا نهضت، إذا تحمَّلت مسؤوليتها، فيما يمنحها الله من: رعاية، ونصر، وتأييد، وتمكين، وخير الدنيا والآخرة...

فالمسألة مهمة جدًّا، فما كان لأيِّ عالم، ولا لأيِّ خطيب، ولا لأيِّ مثقف، ولا لأيِّ شخص ينتمي إلى هذا الإسلام أن يجمد، وأن يميت من نفسه روح الشعور بالمسؤولية، أو أن يتجه في الساحة للتثبيط والتخذيل، وزرع الوهن واليأس في نفوس الناس، والسعي لأن تجمد هذه الأمة، وأن تستكين وهي تواجه أكبر الأخطار والتحديات من قوى الطاغوت المستكبرة، وعلى رأسها أمريكا وإسرائيل، ومن معهما من العملاء الذين يعملون لصالحهما من داخل أبناء الأمة، مرحلة مهمة، لا تقلُّ عن أي مرحلة تمثِّل خطورة بالغة على الأمة في ما مضى من الزمن، مرحلة تستدعي إحياء هذه الفريضة(٢).

(٢) المحاضرة الرابعة من محاضرات الهجرة للسيد عبد الملك حفظه الله.

كيف هو واقع أمتنا اليوم؟

يقول السيد عبد الملك حفظه الله في المحاضرة الخامسة من محاضرات الهجرة:

عندما نتأمل في واقع أمتنا الإسلامية، وفي الظروف التي تعيشها شعوب منطقتنا، في المنطقة العربية، وفي سائر العالم الإسلامي، وما تعانيه هذه الشعوب على كل المستويات، من: تحديات، وأخطار، ومشاكل، وأزمات، من انعدامٍ لحالة الأمن والاستقرار، ومشاكل كبيرة على هذا المستوى، وفي هذا الجانب حروب، ونزاعات، وصراعات، وانقسامات، وتباينات...إلخ. ثم على المستوى الاقتصادي، والأزمات الاقتصادية خانقة ومؤثرة **جدًّا**، وشاملة، تشمل كل أمتنا، كل شعوب المنطقة، ما هناك- تقريبًا- أي بلد إسلامي إلَّا ويعاني من أزمة اقتصادية، ومشاكل كبيرة على المستوى الاقتصادي.

ثم تأتي إلى بقية المجالات: تجدها كلها في حالة من: المشاكل، والأزمات، والتحديات، والتعقيدات الكبيرة **جدًّا**، بمعنًى: أننا نعيش- كأمة مسلمة ومجتمع إسلامي في المنطقة العربية وغيرها- وضعًا غير طبيعي وغير سليم، واقعًا مأزومًا، واقعًا تطغى عليه الكثير من المشاكل الكبيرة والتعقيدات الكثيرة.

ثم نجد في واقعنا، سواءً التحديات التي من خارج بيئتنا

وساحتنا، والتي هي عبارة عن مخاطر واستهدافات من قوى وأمم أخرى معادية لنا كأمة مسلمة، أو المشاكل التي نعاني منها من واقع ساحتنا الداخلية، من داخل أبناء أمتنا: فئات، كيانات منتسبة لهذه الأمة، من أبناء الأمة، وباتت تمثِّل إشكالية كبيرة في واقع الأمة من داخل هذا الواقع.

نأتي إلى طبيعة هذه المشاكل، وهي تمس بحياتنا في كل شئون حياتنا، تأتي إلى واقع معيشتنا، إلى واقع أمننا واستقرارنا، إلى واقع حتى غذائنا... هذه المشاكل لا ينبغي أبدًا أن ننظر إليها مجردة عن أسبابها، **يجب** أن نأتي لنعرف ما هي الأسباب، أننا نعيش- كأمة مسلمة ومجتمع مسلم- كل هذه المشاكل، والتحديات، والتعقيدات، وفي كل مجال من المجالات، هل ثمرة إسلامنا الذي ننتمي إليه في مبادئه، وقيمه، وأخلاقه، وتشريعاته... أن ينتج عن التمسك بها، والانطلاقة على أساسها، واقعٌ كهذا، ظروفٌ كهذه، حياةٌ كهذه، مشاكل كهذه؟ أو أنَّ النتيجة المفترضة لهذا الإسلام في مبادئه، وأسسه، وقيمه، وأخلاقه، وتشريعاته، أن نكون على واقعٍ مختلف، بدءًا في ساحتنا الداخلية، وفي واقعنا الداخلي، ثم في أدائنا، وطبيعة حضورنا بين المجتمع البشري، وطبيعة علاقاتنا بسائر الأمم؟

ثمرة مبادئ وأسس الإسلام وخطورة ضياعها

عندما نأتي إلى ما نعانيه حاليًا، نجد أن في ذلك بنفسه شاهدًا واضحًا وجليًا على عظمة تلك المبادئ والمعالم الأساسية والمهمة في الإسلام، التي لمَّا أضاعتها الأمة وصلت إلى ما وصلت إليه، عندما نأتي إلى أول هذه المبادئ، وهو: **التحرر من سيطرة الطاغوت، والاستقلال عن التبعية للمضلين، والطغاة، والمفسدين، والمجرمين...** هذا المبدأ عندما أضاعته الأمة ما هو البديل عنه؟

البديل أن يسيطر الطاغوت، البديل أن تعيش الأمة في كل شئونها حالة التبعية لأعدائها الذين لا يريدون لها الخير أبدًا، والذين عندما يخططون فيما يخططون لها، أو يرسمونه فيما يرسمونه لها، في أي شأن من شئونها: اقتصاديًا، أو سياسيًا، أو في أي مجال من المجالات، يعملون ما يرون فيه مصلحةً لهم وإضرارًا بالأمة، ويساعدهم على استحكام سيطرتهم عليها أكثر، وإضعافها على نحوٍ أكثر.

عندما غاب مبدأ الارتباط بمصادر الهداية والنور، لكي نكون أمةً مستنيرةً، واعيةً، مبصرةً، تنظر إلى الواقع من حولها، وإلى الأحداث من حولها على أساس من نور الله وهديه، وترسم معالم حياتها، ومسارها في هذه الحياة، في كل اتجاه من مجالات الحياة على أساس ذلك الهدى؛ كان البديل هو الضياع، كان البديل هو الأفكار الظلامية الرهيبة جدًّا، التي تجعل الأمة في واقعها وكأنها

عميـاء، لا تهتدي لرشـد، لا تعرف الحلول، تتعاظم مشـاكلها، وتكثر إشكالاتها مشـكلة على مشكلة على مشكلة، تلك المشكلة لم يجدوا لهـا حلًّا، وتلك الإشـكالية لم يجدوا منها مخرجًـا... وهكذا تتعاظم المشـاكل، وتتكثف الظلـمات التي تسـاعد الآخرين علـى التضليل لنا كأمة بشكلٍ أكبر، وعلى الخداع لنا بشكلٍ أيسر... إلى غير ذلك.

عندمـا ضيعنـا كأمـة بشـكل كبير فـي واقعنـا مبدأ: التركيـز على تزكية النفوس على أسـاس هدى الله، والبرنامج التربوي والأخلاقـي في الإسـلام، ولم يبـقَ منه إلَّا أقل القليـل، كانت النتيجة أن تتدنـس الكثيـر مـن النفـوس، وأن يكون لديهـا قابلية كبيـرة **جدًّا** للانحراف بكل أشـكال الانحراف: الانحراف الأخلاقي، الانحراف في الطغيان والإجرام والإفساد... كل أشكال الانحراف.

عندمـا فقدنـا- **أيضًا**- مبدأ آخر مـن المبادئ الرئيسـية جدًّا، وهو: مسؤوليتنا كأمة في إقامة العدل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وصـلاح واقعنـا الداخلي، وبناؤه على أسـاس تلك المبـادئ، والقيم، والأخـلاق، والتشـريعات، مـاذا كانت النتيجـة؟ أضعنا مبـدأ العدل؛ حـلَّ بديـلًا عنه الظلم، مَنْ الـذي يعاني من الظلم؟ أولسـنا نحن كأمة إسلامية، كمجتمع مسلم، كمجتمعات عربية نعيش واقعًا من المظلومية والظلمات لا نظير له في أي بقعةٍ من بقاع هذا العالم؟!

النتيجة نعاني في واقع حياتنا، المسألة بالنسبة لتلك المبادئ، ليست

فقط مجرد مبادئ دينية التمسك بها يترتب عليه- **مثلا**- أجر وثواب للآخرة، هذا يحصل تلقائيًا، الثواب والأجر في الآخرة يحصل تلقائيًا من التمسك بتلك المبادئ، لكن هناك ثمرة عاجلة لها، وضرورية لها، وهادفة منها في هذه الحياة، ثمرتها لو أخذنا بتلك المبادئ، لو استمر المسار: مسار الأمة الإسلامية على مثل ما تحرك به رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- بتلك المعالم الرئيسية، لو استمر ذلك المسار؛ لكان واقع الأمة مستمرًا بشكلٍ تصاعدي، بشكل ارتقاء، بشكلٍ يتعاظم ويتطور ويرتقي أكثر فأكثر، وأفضل فأفضل، وأحسن فأحسن، ولَمّا كان مسار الأمة من بعد وفاة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- وعبر الزمن يتجه نحو الانحدار، نحو الانحدار، نحو الانحدار، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم.

علاقة الأمة المؤمنة بالجهاد في سبيل اللّه

عندما نأتي إلى نصٍ آخر في القرآن الكريم، وهو يربينا على أن نكون في وعينا وإدراكنا لقيمة التحمل للمسؤولية، وما له من نتائج وآثار مهمة وعظيمة في الدنيا والآخرة، إلى درجة أن نحب هذه المسؤولية، أن نتعلّق بها، أن نتجه فيها بكل رغبة، بكل انشداد نفسي ووجداني، يقول الله -سبحانه وتعالى-: **﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ**

﴿فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: الآية ٢٤]، هذه الآية تتضمن موضوعًا مهمًا جدًا، هي تدُلّنا، تعرفنا، تبين لنا، كيف يجب أن نصل في مستوى وعينا بأهمية القيام بالمسؤولية، والنهوض بالمسؤولية، هذه المسؤولية بحساب أنها تقربنا من الله، وهذا موضوع مهم عند كل إنسان مؤمن، كل إنسان مؤمن يهمه كل عمل يحظى من خلاله بمرضاة الله، يقربه إلى الله -سبحانه وتعالى- أضف إلى ذلك أنَّ لها أهمية كبيرة في واقع الحياة، الأمة إذا كانت أمة متحركة، تواجه الأخطار والتحديات، تتحمل المسؤولية وتجاهد، والجهاد في سبيل الله ليس عملًا عدوانيًا إجراميًا على نحو ما عليه القوى التكفيرية. (لا)، هو عمل تتحرك به الأمة لتدافع به عن نفسها، عن مبادئها، عن كرامتها، عن حريتها، عن استقلالها، عن أرضها، عن عرضها، هو التحرك الذي تتحرك به لتواجه التحديات والأخطار الآتية- أصلا- من قوى الشر، من قوى الإجرام، من قوى الطاغوت، من قوى الطغيان، التي تبتدأ هي بعدوانها، وتتجه إلى الناس- ابتداءً- بشرها، تتجه الأمة حتى تتمكن من أن تحوط نفسها، وتحافظ على عزتها واستقلالها وكرامتها، وتدفع عن نفسها ذلك الخطر.

تنطلق بهذه الفريضة، بهذه المسؤولية: بآدابها، بمبادئها، بقيمها، بأخلاقها، بتشريعات الله فيها، هذا هو الجهاد في سبيل الله، ليس

معناه: دفاع عن الله -سبحانه وتعالى- .(لا)، الله غنيٌّ عن العالمين، وغنيٌّ عن عباده، بإمكانه أن يسلب أولئك حياتهم، كل قوى الطاغوت والإجرام، كل المجرمين، والمضلين، والفاسدين... كل قوى الإجرام يمكن أن يسلب منها حياتها في طرفة عين، يمكن أن يسلط عليها جراثيم لا ترى بالعين المجردة؛ فتفتك بها وتقضي عليها، يمكن أن يفعل بهم أيَّ شيء، نحن من نستفيد من الجهاد، الذي يمثِّل وسيلة دفع لتلك الأخطار، للشر من قوى الشر...إلخ.

فإذًا، نحن عندما نعود إلى النص القرآني: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾، كل من تربطنا بهم أواصر القرابة، هذه الأواصر والروابط الإنسانية، وهم أغلى الناس عندنا، والأحب إلى قلوبنا وأنفسنا، ثم بقية الإمكانات المادية، أهم ما ترتبط به في هذه الحياة في محيطك بكله: أقرباؤك، مالك، منزلك... كل هذه لا ينبغي أن تكون أحب إليك من الله؛ وبالتالي في الاستجابة لله، أنت تستجيب لله -سبحانه وتعالى- وتجعل استجابتك لله فوق كل اعتبارٍ آخر، ولا أحب إليك من رسوله، ولا أحب إليك من الجهاد في سبيله.

أمة يفترض فيها بتربية القرآن أن يكون الجهاد في سبيل الله أحب إليها (أحب: تتحول إلى علاقة محبة)، كيف تتحول إلى علاقة محبة تفوق الحب لأي شيءٍ آخر في هذه الحياة؟ عند إدراك

قيمة المسؤولية، أهمية المسؤولية، ثمرة المسؤولية، في علاقتنا بالله -سبحانه وتعالى- وفي القرب من الله، وفي المنزلة عند الله، والأثر في واقع هذه الحياة، هذه المسؤولية التي إن عُطِّلت نتج عن تعطليها أن تمتلئ حياتنا بالظلم، والهوان، والذل، والقهر، والمسكنة، وأن تتحول حياتنا هذه إلى جحيم، أن تتحول بيئة مفتوحة لتلعبات وإجرام قوى الطغيان والإجرام والظلمة والمفسدين.

إدراك قيمة هذه المسؤولية فيما يترتب عليها من نتائج في الدنيا، وفيما لها من نتائج في الآخرة أيضًا، ما نكسبه في آخرتنا، فيما وعدنا الله به: من رضوانه، من الفوز بالقرب منه، من الكرامة عنده والزلفى لديه، من الجنة التي عرضها السماوات والأرض، بل حتى ما وعد به الشهداء أن يمنحهم حياةً سعيدةً بالعاجل، حتى قبل يوم القيامة، إلى حين قيام الساعة...وهكذا.

يفترض في واقعنا هذا الذي نعيشه، أنَّ الله فيما تحدث به، وهو حديث واسع في كتابه الكريم، يحبب إلينا القيام بهذه المسؤولية؛ فنتجه فيها برغبة، ندرك جدوائيتها، أهميتها، الحاجة الملحة والماسة إليها؛ فنتعلق بها هذا التعلق، فتكون أحب إلينا حتى من الآباء، والأبناء، والإخوة، والزوجة، والعشيرة، والمسكن، والتجارة...إلخ.

هناك نص- أيضًا- في القرآن الكريم يبين لنا كيف يجب أن نكون في واقعنا كأمة تدرك أن عليها مسؤولية في الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، عندما يقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: الآية٧١]، (**الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ**): بينهم هذه الرابطة التي يتحركون فيها كأمة واحدة، متآلفة، متعاونة، تتحرك للنهوض بهذه المسؤولية (**يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**)، ولا يتحولون هم إلى ساحة مفتوحة أمام قوى الشر والمنكر والطغيان، لتفعل في ساحتهم ما تشاء وتريد، مسؤولية أساسية، تعطيل هذه المسؤولية يحوِّل الساحة إلى ساحة مليئة بالمنكرات، والمنكرات ما هي، هل هي أشياء عادية، أشياء طبيعية، أم هي كوارث ونكبات، أم هي ذات أثر سلبي **جدًّا** في واقع الحياة: في تفكيك المجتمع، في الفتك به، في إلحاق أبلغ الضرر به في اقتصاده، في أمنه، في استقراره؟

المنكرات منها ما نفقد بسببه أمننا، منها ما يفكك مجتمعاتنا، منها ما يؤثر على اقتصادنا، كل المنكرات هي تمس بالناس في حياتهم، ليست مسألة فقط تؤثر علينا لعالم الآخرة، تسبب لنا آثامًا هناك في الآخرة، هذا يحصل، ولكن لها آثار وأضرار تتجه إلى واقع الحياة في جانب الأمن والاستقرار، في الجانب الاقتصادي، في الاستقرار الاجتماعي، الاستقرار السياسي، الاستقرار في كل شؤون وواقع الحياة.

فإذًا، يمكننا أن ندرك أنَّه حصل انحراف كبير في واقع الأمة،

عطَّل في هذا الواقع المعالم الأساسية والمبادئ الرئيسية التي تصلح واقع الحياة وتحمي الأمة: تحمي الأمة من الظلم، تحمي الأمة من الطغيان، تحتوي كل الظواهر السلبية، وتقلص منها، وتحد من أن تكون هي الحالات المسيطرة في الواقع العام؛ لأنه للأسف بدلًا من أن تكون في عصر النبي -صلوات الله عليه وعلى آله- مجرد ظواهر تظهر هنا أو هناك في الساحة، ثم تحارب وتحتوى، ويتم السيطرة عليها، ولا تصل إلى درجة التعطيل لمسيرة الأمة، في نهاية المطاف ومنذ أن حكم بنو أميَّة، وتحكَّموا بالأمة؛ تمكَّنوا من العمل على حذف وشطب تلك المعالم من الساحة الإسلامية، وبرزت تلك السلبيات البديلة، تلك البدائل عن تلك المعالم، بدائل ظلامية، بدائل خطيرة **جدًّا**، لتتحول هي إلى حالة مسيطرة في الساحة الإسلامية، وحاكمة في الساحة الإسلامية، ومتحكمة بالساحة الإسلامية، ومؤثرة على المجتمع المسلم؛ فأوصلته إلى ما وصل إليه.

وطبعًا، في مسيرة الأمة بكلها بقي هناك خط يمثِّل الامتداد الأصيل للمنهج الإلهي، لحركة الرسول -صلوات الله عليه وعلى آله- **متمثلا** بالإمام علي -عليه السلام- **متمثلا** بالإمام الحسن -عليه السلام- **متمثلا** بالإمام الحسين -عليه السلام- **متمثلا** بأهل البيت والصالحين من أبناء هذه الأمة عبر التاريخ، لكنه كان مسارًا محاربًا، حفظ للحق وجوده، وحفظ للحق امتداده في الأمة جيلًا بعد

جيل، ولكن الطرف الآخر سيطر من موقع السلطة، من موقع القرار في الأمة، من موقع السيطرة على هذه الأمة في مواردها وإمكاناتها؛ فكان له نتائج سلبية **جدًّا** لها أبلغ الضرر، ولها الأثر السلبي **جدًّا** في واقع الأمة، هو الذي نراه اليوم فيما نراه من مظلومية كبيرة على شعوبنا المظلومة، ومعاناة بكل أشكال المعاناة.

فندرك أن تحركنا لإحياء تلك المعالم البارزة والأساسية في حركة الرسول والقرآن، وفي امتدادها الأصيل المعبِّر عنها في أخيار هذه الأمة عبر التاريخ، هو تحركٌ ضروريٌ لنواجه ما نواجهه وما نعاني منه من أخطار وتحديات تمس بحياتنا وواقعنا وشؤوننا بشكلٍ مباشر: في الوضع الاقتصادي، في الوضع الأمني، في الوضع السياسي، في الواقع الاجتماعي، في كل مجالات الحياة(٣).

المسؤولية معيار لصدق الانتماء الإيماني

يقول السيد عبد الملك حفظه الله في المحاضرة السادسة من محاضرات الهجرة:

إنَّ الموقع الذي تحتله المسؤولية -كما قلنا- في مجالاتها المتعددة: في إقامة العدل، وإحقاق الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله -سبحانه وتعالى-

(٣) المحاضرة الخامسة من محاضرات الهجرة للسيد عبد الملك حفظه الله.

والمصداقية في الولاء، وعدم الانحراف في الولاء، هذه المسألة موقعها في الدين الإسلامي لدرجة أنَّ الله جعلها معيارًا لمصداقية الإنسان في انتمائه الإيماني، لهذا المستوى من الأهمية.

ولذلك، عندما نتجه إلى النصوص القرآنية، والآيات المباركة، وما يقوله الله فيها؛ ندرك خطورة التفريط في هذا الجانب، ومساوئه، وما يترتب عليه، الله -سبحانه وتعالى- أكَّد في القرآن الكريم في آيات كثيرة على هذه النقطة: على أنَّ النهوض بهذه المسؤولية، أو التفريط فيها إنَّما يعتبر شاهدًا ومجليًا وموضحًا وكاشفًا لحقيقة مصداقية الإنسان، فالذي يحدد مصداقيتك مع الله -سبحانه وتعالى- هو ما أنت عليه في مدى تحملك لهذه المسؤولية، والتزامك بها، وتفاعلك معها.

نجد أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يقول في كتابه الكريم: ﴿مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ﴾[آل عمران: من الآية١٧٩]. في حالة الانتماء للإيمان، المجتمع الإسلامي بمعظمه ينتمي إلى الإيمان، والكل يأتي ليقول عن نفسه: (أنَّه من المؤمنين، وأنَّه مؤمن بالله واليوم الآخر، وما أمر الله بالإيمان به)، والبعض حتى قد يأتي مدعيًا اختصاصه بذلك، وأنَّه المؤمن حقًا، الله -سبحانه وتعالى- جعل في سنته وطريقته مع عباده أن يجلِّي واقعهم، ويبين حقيقتهم في ما هم عليه من خلال هذه

السنة الإلهية، وهي سنَّة الاختبار الكاشف، الذي يجلِّي حقيقة ما كل إنسان عليه، وما ينتمي إليه، وما هو في واقعه وداخله.

هناك كثير من الأعمال يمكن لكثير من الناس أن يقوم بها، لا تحتاج إلى إيمان كبير، لا تحتاج إلى قيم راسخة، لا تحتاج إلى دافع كبير حتى يتمكن الإنسان من القيام بها، وبالذات عندما يكون الواقع العام في مجتمعٍ معين، كالمجتمع الإسلامي، يتعود الإنسان فيه منذ نشأته، منذ طفولته المبكرة على أشياء عبادية معينة، وتتحول إلى روتين اعتيادي في حياته، ولا تمثِّل - حينها - أي مشكلة عليه، بل قد يدخل في مشكلة فيما لو أخلَّ بها، **مثلا**: في مجتمعنا الإسلامي كم نسبة المصلين؟ نسبة عالية **جدًّا**، هذا أمر جيد، والصلاة خير العمل، والمطلوب الاهتمام بها، ولكن الخطأ إذا فُصِلت عن جانب المسؤولية، أو إذا أصبحت عملًا روتينيًا اعتياديًا لا يحاول الإنسان أن ينتفع منه، أن يتأثر به، أن ينشد من خلاله إلى الله -سبحانه وتعالى-.

في الجو الاعتيادي والروتيني الذي ينشأ عليه المجتمع المسلم منذ الطفولة، والإنسان يعتاد - **مثلا** - أن يذهب إلى المسجد، أن يصلي... حالة عامة لدى الكثير من الناس، لا يتطلب الأمر أن يحتاج الإنسان إلى اندفاع إيماني كبير، انشداد عظيم إلى الله في: المحبة لله، والخوف من الله، والرغبة فيما عند الله، والإيمان باليوم الآخر، والتَّربية على قيم وعلى أخلاق معينة، حتى يستطيع الإنسان أن يذهب إلى

المسجد للصلاة، أو أن يصلي. (لا)، **يعني**: مستوى التعود فقط يكفي في أن تصلي، ما بالك والمسألة عادية، بالذات إذا كانت الأجواء أجواء طبيعية، ليس هناك ما يمثِّل مشكلة في سبيل أدائك للصلاة، لن تدفع في مقابل ذلك شيئًا من أمنك، ولا استقرارك، ولا أي شيء آخر. وهكذا البعض من الأعمال الروتينية الاعتيادية التي يؤديها الإنسان بمقتضى التعود، وبمقتضى أنَّه استمر عليها كروتين لفترة طويلة في حياته، وألفها في واقعه الاجتماعي، يمكن أن يؤديها بشكل طبيعي، وأداؤها في مثل هذا الظرف أمر اعتيادي- كما قلنا- لا يحتاج إلى مستوى عالٍ من الإيمان، ثم تجد كثيرًا من الأعمال التي أداؤها أمر اعتيادي، ليس فيه مشقة بالغة، ولا خطورة، ولا يحتاج إلى دفع ثمن، **يعني**: لا يحتاج القيام بها إلى مخزون إيماني، إلى دافع إيماني كبير، ولا يحتاج- **أيضًا**- إلى كلفة.

لكن عندما تأتي إلى بعضٍ من الأعمال التي: إما أنَّ الإنسان سيدفع لها- **مثلا**- من ماله، أو يعرِّض فيها حياته للخطر، أو يواجه فيها صعوبات ومشاق وتحديات، الكثير من الناس يُحجِمون عن أداء مثل هذه الأعمال، ولا يتوفر لديهم الاندفاع الكبير للقيام بها؛ **لأن** الدافع هذا هو دافع إيماني، يحتاج إلى أن تكون محبتك لله -سبحانه وتعالى- على مستوى يفوق أي محبة لأي شيء آخر؛ حتى لا يمثِّل أي شيء آخر مما تحبه عائقًا بينك وبين أداء ذلك العمل، وتحمل تلك

المسؤولية، أحيانًا الخوف، يمكن أن يؤثِّر عليك الخوف في ثباتك على موقف معين، أو اندفاعك لموقف معين، يحتاج هذا إلى أن يكون خوفك من الله -سبحانه وتعالى- أكبر من خوفك من أي شيء آخر؛ حتى تتفوق على عقدة الخوف في نفسك من تلك الأشياء الأخرى، التي قد تؤثر عليك وتحول بينك وبين ذلك العمل، أو تحمل تلك المسؤولية.

الرغبة والأمل والطمع **كذلك**، أحيانًا يحتاج الأمر إذا كنت في سبيل موقف معين ستضحي بمصلحة معينة، هذا أمر يؤثر على الكثير من الناس، يحتاج إلى أن يكون أملك في الله، ورجاؤك فيما عند الله يفوق أطماعك الأخرى، واتجاهاتك وميولك الأخرى إلى مصلحة هنا أو مصلحة هناك؛ **لأنك** في واقعك الإيماني منشد إلى مصلحة أكبر وأعظم وأبقى عند الله -سبحانه وتعالى- حتى انشدادك إلى الله في الحالة الإيمانية والنفسية والوجدانية، في تعظيمك لله -سبحانه وتعالى- وإجلالك لله، وتكبيرك لله -سبحانه وتعالى- يجعلك منشدًا إلى الله فوق كل شيء.

فالأعمال التي قد تحتاج: إما إلى كلفة مالية، أو تضحية بمصالح معينة: (مادية، أو منصب، أو أي شيء من هذا القبيل)، أو مواجهة تحديات وأخطار: إما على النفس، وإما على المال، وإما على المنزل، وإما على أي شيء مما هو غالٍ لدى هذا الإنسان، وعزيز على

هذا الإنسان. هنا المحك، هنا يتبين واقع الإنسان، هنا تتجلى حقيقة ما عليه من قيم وأخلاق، هل يمتلك فعلًا الإيمان بالله -سبحانه وتعالى- الذي يستطيع من خلاله، وبهداية الله، وبمعونة الله، وبتوفيق الله... أن يتغلب على تلك المؤثرات عليه، إذا كان- **مثلا**- سيضحي بمصلحة من هذه الدنيا: مال، أو جاه، أو منصب... في سبيل ثباته على موقف الحق، في سبيل نهوضه بمسؤولية معينة، هل يمتلك من الإيمان ما يجعله يتغلب على هذا العامل المؤثر، وهو: خوف فوات تلك المصلحة، إذا كان سيتعرض للخطر في مقابل ثباته على هذا الموقف، هل خوفه من الله ومحبته لله ستدفعه إلى أن يثبت لو حصل ما حصل، مع احتمال تعرض حياته، أو ممتلكاته، أو شيءٍ مهم لديه للخطر، هل سيثبت؟

الغربلة.. سنة إلهية عبر الزمن

تتجلى حقيقة الإنسان أولًا في انتمائه الإيماني، ثم يتجلى واقع الإنسان لأكثر من ذلك، أكثر من مجرد الانتماء، أهم ميدان تتجلى فيه حقائق الناس وخباياهم وخفاياهم، ويخرج ما في أعماق نفوسهم إلى واقعهم العملي: فيما يقولون، وفيما يفعلون، أهم ميدان يجلّي الناس، يكشف الناس، يوضح الناس، يبين الناس... هو ميدان الصراع، **فمثلا**: في واقع الإيمان والقيم الإيمانية، وما عليه المؤمنون، تتجلى تلك القيم- التي هي في الأساس جذورها

في أنفسهم: معتقدات، ومبادئ، ومعان، ووجدان إيماني: محبة لله، وخوف من الله، وتعظيم لله، ونفوس زاكية وصالحة... تتجلى تلك القيم- في الممارسات، في السلوكيات، في الأعمال، في المواقف، وما عليه الخبيثون: الإنسان الذي هو خبيث، ولو كان ينتمي للإيمان، ولو كان يقدِّم نفسه حتى متدينًا، يتجلى ويتضح وينكشف ذلك الخبث في واقعه العملي، في سلوكياته، في مواقفه، في أقواله، في أفعاله، في تصرفاته؛ فيتضح حقيقة ما هو عليه.

في ظل ظروف اعتيادية ليس فيها أمور حساسة، ولا مشاكل، ولا أخطار، ولا تحديات، ولا انفعالات، ما يثير حالة الانفعال لدى الناس، قد يظهر الكثير من الناس: (ما شاء الله العظيم من أهل الخير، وأطيابًا ومؤمنين)، ولكن عندما تأتي مثل هذه العواصف من الأحداث المزلزلة: فيها مخاوف، فيها أخطار، فيها انفعالات، فيها... عوامل تحرك هذا الركود والجمود في واقع الناس؛ فيخرج ما في نفوس الناس، وما في قلوبهم، وما في أعماق أنفسهم، ليتجلى في واقعهم العملي والسلوكي: في الأقوال، والتصرفات، والمواقف، والولاءات، والعداوات.

تظهر كل الأمور، ولهذا نجد في هذه الآية المباركة: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، آية مهمة، هذه الآية المباركة في سورة آل عمران، وهي تأتي في إطار الحديث عن هزيمة أُحد، ما ترتب

عليها من: تضحيات، ومأساة، واهتزاز كبير داخل المجتمع الإسلامي آنذاك، المجتمع المسلم تسببت هزيمة أحد في إحداث اهتزاز كبير، وغربلة كبيرة لواقعه الداخلي، البعض ممن كانوا في الماضي يظهرون كمؤمنين، صالحين، صادقين، ثابتين، جادين، أوفياء، لو أن المسألة مجرد كلام- **مثلا**- البعض يمكن أن يطلّع لك قائمة طويلة من المبادئ التي يزعم على أنه عليها، فيقول **مثلا**: (أنا من الأوفياء، وأنا من الصادقين، وأنا من الثابتين، وأنا من الكذا، وأنا وأنا...).

يعبِّر عن نفسه بقائمة طويلة عريضة يزعم أنَّه على تلك المبادئ والقيم، لكن عندما تعصف الأحداث تكشف حقيقة الناس، تغربلهم، هذه سنَّة إلهية، وما كان الله ليترك المؤمنين في كل عصر، في كل زمن، في كل جيل، إلَّا وتمضي عليهم هذه السنة، هذه سنَّة إلهية مع كل الأجيال؛ ولهذا أتى التعبير القرآني على هذا النحو: ﴿مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ ما يمكن أن يترككم على ما أنتم عليه: واقع يمكن أن يدخل فيه الخبيث مع الطيب، يمكن أن يقدِّم الجميع أنفسهم على أنهم: طيبون، وصالحون، وأبرار، وأخيار، وملائكة، ومن أهل الخير... لابد؛ لأن الله لا يقبل الغش أبدًا، لا يقبل الخداع، لا يمكن للإنسان أن يخادع الله –سبحانه وتعالى–.

ولهذا عندما نأتي- مثلًا- إلى واقعنا في هذا الزمن، نحن في هذا الجيل وهذا العصر، عندما نشاهد هذه الأحداث التي تعصف

بنا، وتنزل بساحتنا، وتأتي إلى واقعنا، وهي أحداث تعنينا نحن، متى نتصور أنَّ الاختبار الإلهي سيأتي؟ أم أنه سيأتينا هذا الاختبار الإلهي يوم القيامة؟! **مثلا**: البعض من الناس لم يسمح لنفسه بأن يتفهم حتى هذه المسألة: أننا نعيش اختبارًا إلهيًا، يختبرنا الله -سبحانه وتعالى- ماذا سنكون عليه، ما هي مواقفنا، كيف هي ولاءاتنا، كيف هي قيمنا وأخلاقنا؟ وبماذا يختبرنا؟ يختبرنا بالأحداث، بالمشاكل، بالتحديات، بالأخطار، عندما يأتي إلى واقعنا مثل هذه المشاكل، وهذه الأخطار، وهذه التحديات، يختبرنا فيما إذا كنا سننهض بالمسؤولية، ويتجلى في نهوضنا بالمسؤولية كل تلك القيم، كل تلك الأخلاق، كل تلك المبادئ، أم أننا سنفشل، ولن ننهض بالمسؤولية، ويتجلى في واقعنا الشيء الآخر: الذي هو الخبث.

﴿مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، لابدَّ من الأحداث التي تغربل الناس، وتكشف واقعهم، وتجلي حقيقة ما في أنفسهم؛ فيظهر الخبيث، ويظهر الطيب، أين سيكون الطيب، وأين سيكون الخبيث بحسب التوصيف القرآني؟ هل الطيب هو الذي يستجيب لله -سبحانه وتعالى- وينهض بهذه المسؤولية، يضحي، يعاني، يصبر، يثبت، يعمل بمقتضى إيمانه، بمقتضى تلك القيم، مقتضى تلك التوجيهات الإلهية في القرآن الكريم: التوجيهات الإلهية بالجهاد، والتضحية، والعطاء، والصبر، والثبات... وكل تلك التوجيهات الإلهية؛ أم هو الخبيث الذي يفعل

هكذا، مَن مِن الطرفين؟ المتنصل عن المسؤولية، المتهرب من تلك التوجيهات الإلهية، أم الناهض بها، من منهما الخبيث، ومن منهما الطيب؟ المسألة واضحة في القرآن الكريم كل الوضوح.

ونجد في بقية النصوص القرآنية- مثلًا: في سورة آل عمران- أنَّه في الظروف الحسّاسة والخطرة والاستثنائية يأتي الاختبار بشكل أكبر وأعمق، مثلًا: في الظروف المطمئنة يمكن للبعض من الناس أن- لا بأس- يتماشى معها، ويتظاهر بأنه في صف الحق، وأنه ضد الباطل، وضد الإجرام والطغيان والعدوان والظالمين والمجرمين، لكن عندما تكون هناك اهتزازات أكبر، البعض (لا)، كالغربال الذي كلما اهتز نقى أكثر وأكثر، وتساقطت منه الكثير من الشوائب، تتساقط منه أكثر وأكثر، **فمثلا** في هزيمة أحد: البعض من الناس كان ما قبل هزيمة أحد في الصف الإسلامي يظهر وكأنه من الثابتين والصالحين والمؤمنين والمقتنعين بهذا الحق، بهذه المبادئ، بهذه القيم، بهذه المواقف التي رسمها الله، والتي ينبغي أن نكون عليها، وأن نتمسك بها كمؤمنين.

لأن هذا معنى أن تكون مؤمنًا بتلك: المبادئ، القيم، الأخلاق، التوجيهات الإلهية، المواقف التي رسمها الله -سبحانه وتعالى- مقتنعًا بها، وملتزمًا بها، فعندما تأتي لتقول: (أنا مؤمن، أنا أتَّبع هذا القرآن، أنا أؤمن بهذه التوجيهات والتعليمات، أنا أؤمن بهذه المواقف، ولائي هو

هـذا الولاء، اتجاهـي هو هذا الاتجاه)، يأتي الاختبـار الإلهي، تأتي -أحيانًا- مواقف صعبة: إما تراجعات، أو انكسارات، أو مواقف تحقق فيهـا للعدو بعض التقدمات، يحصل شـهداء، يحـدث أن يكون هناك جرحى، أن يكون هناك تراجعٌ ما... فيهتز البعض اهتزازًا كبيرًا.

يقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾[آل عمران: من الآية١٤٠]، في كثير من الأحيان يكون العدو قد خسر هو كذلك، وقد تكبَّد الكثير من الخسائر والهزائم، وينسى البعض من الناس هذه المسألة، لا يرون إلَّا حالة الضرر، أو الألم، أو وقوع شـهداء أو جرحى في صف المؤمنين؛ فيجعلون من المسألة مشكلة، ويهوِّلون من خلالها، ويرجفون، ويثبطون، ويخذلون، ويصوِّرون المسألة أنَّها: مسألة خطيرة، وأنَّه لا يمكن للناس الثبات، وأنَّ الموقف خطأ، وانظروا كيف كانت النتيجة...إلخ. الله يقول: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، يحصل في الواقع البشري أن يحدث- أحيانًا- تراجع، أحيانًا ضرر، أحيانًا شهداء، أحيانًا جرحى، يحدث لاعتبارات كثيرة تعود إلى الواقع البشري.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ • وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ • أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٠-١٤٢]، الآية المباركة تقول: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، يتبين في

الواقع العملي، وبالفعل، ومن خلال الأحداث نفسها يتبين من هم المؤمنون الصادقون الأوفياء، تبينهم ماذا؟ تبينهم الأحداث من خلال ثباتهم، من خلال استمراريتهم، من خلال وفائهم، من خلال صبرهم، من خلال تضحيتهم، من خلال عطائهم؛ لم يتراجعوا، لم ينكسروا، لم يهنوا، لم يضعفوا، لم يستكينوا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران: الآية١٤٦].

التمحيص الإلهي للمؤمنين

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، عملية التمحيص: عملية تنقية من الشوائب، حتى في واقع المؤمنين من خلال ما يعانونه في نهوضهم بالمسؤولية، يدفعهم ذلك إلى أن يصلحوا وضعهم أكثر، يهذبوا أنفسهم أكثر، يتداركوا أخطاءهم أكثر، يتجهوا في صبرهم والتجائهم إلى الله -سبحانه وتعالى- وإقبالهم إلى الله، ومعاناتهم في سبيل الله، إلى أن يصلحوا، ويتخلصوا من كثير من الشوائب، **والمؤمن**- كما في الحديث عن رسول الله -صلوات الله عليه وعلى آله- **كسبيكة الذهب كلما أوقدت عليها النار ازدادت خلاصًا ونقاءً**، في معنى الحديث ومضمونه، المؤمن كذلك: الشدائد، المحن، الآلام، الأوجاع، النكبات والمآسي والأحزان تنقيه أكثر، تدفعه إلى الالتجاء إلى الله

أكثـر، تدفعه إلى أن يتدارك واقعه، أن يحاسـب نفسـه، أن يقيم عمله، أن يصلـح في نفسـه وفي عملـه وفي سـلوكه، وأن يتدارك فـي واقعه وقصـوره أكثر وأكثر. فعملية التمحيص تجعـل للأحداث أثرًا إيجابيًا في نفسـية الإنسـان المؤمن، وفي واقعه وأدائه العملي، حتى في تقييم أدائه في نفس نهوضه بالمسـؤولية، أدائه الجهادي، أدائه في العمل في أي مجال من مجالات المسؤولية.

ثـم يقول الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ﴾، يريدون الجنة، المصلـون يريـدون الجنة، والصائمـون قالوا: (نصـوم لندخل الجنة)، يمكـن ندخـل الجنـة بتلك الأعـمال المحدودة البسـيطة، التـي نعملها بكل بسـاطة في هـذه الحياة، بل يمكـن أن نتعود عليهـا؛ حتى تصبح أعـمالًا اعتيادية جدًا، لا يعبِّر أداؤنا لهـا عن دافع إيماني، يمكن هذا أن لا يعبِّـر عن دافـع إيماني، ولا يعني ذلك أن يتركها الإنسـان؛ **لأنه** لم يصل إلى أن يعبِّر بدافع إيماني. (لا)، مطلوب من الإنسـان الاسـتمرار عليهـا، ولابـدَّ منها، وهي أركان للإسـلام يقوم عليهـا، الخطأ هو في فصلهـا عن الجوانـب الأخرى، الخطأ هو في تجزئـة وتقطيع أوصال هذا الدين، وأن يؤمن الإنسـان ببعض ويكفر بالبعض الآخر: إما كفرًا عمليًـا بالرفض لذلك الجانب العملي وتعطيلـه، وإما جحودًا بالتنكر له وإنكاره.

يقول الله -سبحانه وتعالـى-: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا

﴿يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، الجنة لابدَّ فيها من الجهاد والصبر؛ لأن هذا يدلل على مصداقية الإنسان في إيمانه بتلك المبادئ الإيمانية، أنت تقول: (أنا مؤمن)، طيب هل المسألة مجرد كلمة تقولها؟ (لا)، ائتِ إلى أوصاف المؤمنين في القرآن الكريم، ائتِ إلى المبادئ التي تقدم على أساس أنك تؤمن بها، تلك المبادئ، تلك القيم، تلك التشريعات، تلك التوجيهات، تلك الأوامر، تلك النواهي... ما مدى التزامك بها، إيمانك بها قناعة والتزام، أين هو الالتزام؟ الالتزام يجليه بالفعل، عندما تواجه خطرًا، أو تحديات، أو تؤثر تلك القيم والمبادئ على اعتبارات ومصالح هي رغبات للنفس وهوى للنفس، ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

وليعلم المؤمنين.. وليعلم الذين نافقوا

يقول الله -سبحانه وتعالى- أيضًا وهو يؤكِّد على هذه المسألة: مسألة أنَّ الأحداث، أنَّ مدى النهوض بالمسؤولية، أنَّ التحرك في سبيل الله هو الذي يجلِّي واقع الإنسان، أنَّ موقف الإنسان في مواجهة التحديات والأخطار، وعواصف الأحداث وزلازلها، هو الذي يبين حقيقة هذا الإنسان، ومصداقية هذا الإنسان، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾، (يَوْمَ التَقَى الجَمْعَان): جيش المؤمنين وجيش الأعداء، ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلْيَعْلَمَ

﴿الَّذِينَ نَافَقُواْ﴾[آل عمران: ١٦٦-١٦٧]، **لاحظ**، ينتج عن هذا الاختبار الإلهي فيما أصاب المؤمنين، فيما قدَّموه من تضحيات وشهداء وجرحى، فيما أحدثه ذلك من: اهتزاز وإرباك في الساحة، وتأثير في الواقع، يكون به التوضيح والكشف والتجلي لحقيقة المنتمين إلى الصف الإسلامي، إلى الإيمان، للانتماء الإيماني، ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، الله هو يعلمهم ابتداءً، ولكن مطلوب أن يتجلى ذلك في واقعهم العملي، لا أن يبقى حالة مخبية في نفوس الناس، يتجلى في الواقع العملي، ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، والمؤمنون بماذا اتَّضحوا؟ بثباتهم، بصبرهم، بروحيتهم المعطاءة، وهم إنما ازدادوا إقبالًا إلى الله، واحتسابًا فيما قد قدَّموه من تضحيات عند الله -سبحانه وتعالى- أولسنا نرى هذه الحالة في بعض أسر الشهداء، فيما يظهرون عليه من: روحية العطاء والتضحية، والاحتساب عند الله -سبحانه وتعالى- لتضحياتهم؟. ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ﴾، (نَافَقُوا) ينكشفون، يفتضحون، ولا يكشفهم شيءٌ أبدًا مثلما هو الجهاد في سبيل الله والولاءات، أكبر عامل يجلِّي الناس هو هذا الجانب: الجهاد والولاء.

ولهذا يقول الله في آيةٍ أخرى في سورة التوبة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ﴾[التوبة: من الآية١٦]، يخاطب مَنْ؟ هل هو يخاطب قومًا في المريخ، أو في كوكب الزهرة، أو في عالم بعيد عن عالمنا هذا، هو يتخاطب معنا كمجتمع مسلم في كل زمن، وفي كل جيل، (أَمْ حَسِبْتُمْ

أن تُتركوا) بمعنى: أن الله يقول لنا: أنَّه لـن يتركنا من اختبار معين محدد، ما هو هذا الاختبار يا الله الذي ستقول أنك لن تتركنا من دون أن تختبرنا به؟ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ﴾، يتبين من خلال الواقع، يختبركم الله بأحداث، بمواقف، بظروف في الواقع العملي، تحديات تتحملون فيها مسؤولية أن تجاهدوا، ويتحتم عليكم في مقابلها أن تجاهدوا، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ﴾، وماذا أيضًا؟ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾، ما هي الوليجة؟ الدخيلة في الولاء، لم يُدخِلوا في ولائهم طرفًا آخر، من هو الطرف الآخر؟ هو العدو: إما منافق، وإما كافر يتجهون بالولاء إليه، إما ظالم، إما فاسق، إما مجرم، إما طاغية يتجهون بالولاء إليه، ينحرفون ويصوِّبون ولاءهم نحوه.

فالله -سبحانه وتعالى- قرر وأكَّد على هذا بآياته البيِّنات، الواضحات، الجليات، أنَّه لا يمكن أن يتركنا من هذا الاختبار في كل جيل، يختبرنا مَنْ مِنَّا سيجاهد، ومَنْ مِنَّا سيقعد؟ مَنْ مِنَّا سيكون وفيًا في تحمله للمسؤولية، ونهوضه بالمسؤولية، في ولائه، فلا ينحرف بولائه عن الله ورسوله، (وَلَا الْمُؤْمِنِينَ)، ولا يوجهه نحو أعداء الله وأعداء الأمة من: المنافقين، والكافرين، والمجرمين، والطغاة. (لا)، يستقيم في هذا الاتجاه ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾.

النفاق.. تتصل عن المسؤولية وتجرد من القيم

هنا يقول: ﴿**وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ**﴾، كيف كان موقف الذين نافقوا؟ يوضحه الله في نفس السياق للآية المباركة: ﴿**وَقِيلَ لَهُمْ**﴾، **يعني**: للذين نافقوا ﴿**تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ**﴾، لا يليق بكم أن تقعدوا، هذا التحدي وهذا الخطر هو على أمتكم، على شعبكم، عليكم، على المجتمع الذي تنتمون إليه، هذا خطر على الجميع، لا يليق بكم تجاه هذا الخطر أن تقعدوا، وأن تجمدوا، وأن تتنصَّلوا عن المسؤولية؛ **لأن** من شأن المؤمنين أن يقاتلوا في سبيل الله كمسؤولية، وكفريضة دينية لها أهميتها الكبيرة في القرب من الله، وفي مصداقية الإنسان في انتمائه الإيماني، وفي دفع الخطر عن الأمة، ﴿**أَوِ ادْفَعُواْ**﴾، إذا لم تريدوا أن تقاتلوا في سبيل الله، فبالحد الأدنى دافعوا عن بلدكم، دافعوا عن شعبكم، دافعوا عن أمتكم، دافعوا عن مناطقكم، (**أَوِ ادْفَعُوا**) ادفعوا هذا العدو الذي هو قادم ليحتل، وينتهك الأعراض، ويسيطر على كل شيء.

فماذا فعل الذين نافقوا؛ هل استجابوا؟ (لا)، تميَّز نفاقهم بتنصلهم عن المسؤولية، وتهربهم منها، ولا مبالاتهم وكأنَّه لا خطر، وكأنَّه لا شر، وكأنَّ العدو الذي يهجم، والذي يهدف إلى الاجتياح والساعي للسيطرة، كأنه وليٌّ حميم، وكأنَّه صديق وكأنَّه طرف سيقيم الحق والعدل والخير، وآتٍ بمصلحة للأمة.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾، تهرب، يقدِّمون التبريرات للتهرب، للتنصل عن المسؤولية، وما أكثر من يفعل هذا نفسه، يتصرف على هذا النحو، يقدِّم تبريرات وعناوين وتعللات؛ حتى يتهرب من أداء هذه المسؤولية، ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾، هم قد ابتعدوا عن الإيمان، لدرجة أنَّهم باتوا أقرب إلى الكفر، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران: ١٦٧-١٦٨]، (قَعَدُوا): لم ينهضوا، لم يتحركوا أبدًا، ولم يدفعهم لا وعي باستشعار الخطورة، ولا دافع إيماني بالاستجابة لتوجيهات الله وأوامره وآياته إلى أن يتحركوا ويقاتلوا. (لا)، قعدوا، في نفس الوقت- مع قعودهم- يثبِّطون، وينتقدون الآخرين، ويسخرون منهم، يقولون: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، أولئك الذين ذهبوا إلى المعركة، أولئك الذين استجابوا لله، أولئك الرجال الذين بوفائهم، وإيمانهم، وحريتهم، وعزتهم، وقيمهم الإيمانية، وأخلاقهم الكريمة، لم يرضوا لأنفسهم بالقعود، وتحركوا، واندفعوا، واستجابوا، وانطلقوا؛ فاستشهدوا، ونالوا كرامة الشهادة، يأتي أولئك- وقد قعدوا وتنصَّلوا عن المسؤولية- ليسخروا منهم، فيقولوا: (لَوْ أَطَاعُونَا): (كنا قلنا له اجلس في بيتك، لا حاجة لك في هذا، لا تدخل نفسك في هذه المشاكل، دعهم وشأنهم اترك هؤلاء).

تثبيط، تخذيل، ارجاف، تهويل، تضليل، خداع، تشويه... عبارات

كثيرة، الهدف منها: تجميد الناس معهم، والكثير من أولئك المنافقين لا يكتفون بأنهم قد ارتكبوا معصيةً بقعودهم، ووزرًا بخنوعهم، وأساؤوا حتى إلى أنفسهم بتنصلهم عن المسؤولية، إنما يتجهون إلى الآخرين للتثبيط بكل الوسائل والعبارات، ويطلبون من الآخرين أن يقعدوا كما قعدوا، وأن يجمدوا كما جمدوا، وأن يتنصَّلوا عن المسؤولية كما تنصَّلوا، وأن يفرِّطوا فيها كما فرَّطوا، أن يتخاذلوا كما تخاذلوا، أن يتجردوا من قيمهم: (الإنسانية، والفطرية، والإيمانية، والدينية) كما تجردوا.

(لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا) يعني: فاعتبروهم خاسرين، أنهم بتضحيتهم خسروا، ﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، فالتهديد يطالكم، وأنتم لن تسلموا أبدًا، ولستم عباقرة للدرجة التي ستسلمون من خطر الموت، وتخلدون في هذه الحياة، إنَّ العدو يشكِّل خطورةً عليكم من جانب؛ **لأنه** يمكن أن يطالكم بشره في أي لحظة، **وأيضًا** الموت الذي لابدَّ منه آت، ولن تدفعوا عن أنفسكم هذا الموت الذي لابدَّ منه، ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[آل عمران: ١٦٩-١٧٠]، فلم يخسروا؛ **لأن** الله أعطاهم عندما استشهدوا في سبيله حياةً خيرًا من هذه الحياة، وسعيدةً بدلاً من هذه الحياة المليئة بالمنغصات.

مرض القلوب وسنة الله في كشف واقعهم.

يقول الله -سبحانه وتعالى- أيضًا- وهو يوضح في كتابه الكريم أنَّ سنَّته في هذه الحياة أن يكشف واقع الناس من خلال مسألة الجهاد والولاء، بالتحديد هذه المسألة، يقول -جلَّ شأنه-: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾[محمد: الآية٢٩] (الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) من المنتسبين للإيمان والمدَّعين له، ولكن في قلوبهم مرض، وطبعًا هذا المرض غير المرض الجسمي، يعني: ليس مرض الشرايين ولا الصمامات... ولا من أيٍّ من هذه، هذا مرض من نوع آخر، إما شك في الحق، عدم ثقة بالله -سبحانه وتعالى- خبث متجذر بأيِّ شكل من الأشكال: بخل، حقد... أي مرض من تلك الآفات والمساوئ النفسية والأخلاقية، التي تؤثِّر على الإنسان في نفسيته وأخلاقه.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، حالة من الانحراف، حالة تخالف مقتضى الفطرة، المرض: هو الحالة التي تخالف مقتضى الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها، الإنسان مفطور على قيم ومبادئ عظيمة، والدين إنَّما يأتي متطابقًا مع الفطرة، ولكن الإنسان- أحيانًا- ينحرف عن فطرته هذه؛ فيؤثر حتى على فطرته، تتأثر فطرته، يتوجه نحو أشياء أخرى، ويتربى على أشياء أخرى، ويتعود على أشياء أخرى؛ حتى تنطبع بها نفسه، وتنمحي تلك القيم الفطرية، أو تضعف- إلى

حد كبير- مقابل تجذر وتعمق تلك الأشـياء السلبية التي دخلت على نفسـيته، وعلى مشـاعره، وعلى وجدانه؛ فانشد إليها بأكثر من الأشياء الفطريـة، وأحيانًا يصل البعض إلـى أن تنتهي وتندثر بقايا تلك الأمور الفطرية التي أودعها الله في أعماق نفسه.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ • وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ • وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[محمد: ٢٩-٣١]، (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) من خـلال الأحداث والمواقـف التـي يتحتم عليكم فـي مقابلهـا أن تجاهـدوا، فَمَنْ جاهد أثبـت مصداقيتـه مع الله، مَنْ جاهد وصبر أثبـت مصداقيته، وتجلى ما يحمله في واقعه: من إيمان راسخ، من قيم عظيمة، من أخلاق عظيمة، من مبادئ راسـخة عظيمةً، من التزام عملي، وصدق في الاستجابة لله -سبحانه وتعالى- ومن لم يجاهد، وتنصَّل عن المسؤولية؛ يتضح أمام الله أنَّه يعاني من ذلك المرض الذي مَثَّلَ عائقًا أمامه، مرض في مبادئه، في انتمائه، في عمق نفسـه، عنده أضغان، عنـده خلل معنوي كبير مَثَّلَ عائقًا ما بينه وبين أن يستجيب لله -سبحانه وتعالى-.

وفعـلًا، تجد ما يـدل على هذا المـرض، طبيعـة الأحداث طبيعـة تجلِّي كل شـيء، **مثلا:** في ظل الصراع- نفسـه- يحصل من جانـب قـوى الشـر والطاغـوت والإجـرام جرائم وممارسـات بشـعة وفظيعة جدًّا، يندى لها جبين الإنسانية، نرى اليوم **مثلا**، في العدوان

الأمريكي السعودي الإماراتي على بلدنا، ماذا يفعل أولئك بنا كشعب يمني مسلم؟ أوليسوا يقتلون منا الآلاف المؤلفة من الأطفال والنساء بجرائم بشعة ووحشية للغاية، مشهد من تلك الجرائم وأنت ترى منزلًا مدمرًا، أو تجمعًا بشريًا في سوق، أو في مسجد، أو في مستشفى، أو في مدرسة، وترى كيف ألقوا قنابلهم المدمرة والفتاكة على ذلك التجمع، وقد مزقت الكثير من أولئك الأطفال والنساء والناس إلى أشلاء، وتفحَّمت جثامين أكثرهم، والبعض قد أصيبوا بجراحات كبيرة **جدًّا**، والبعض جراحات قاتلة، إنما البعض لا يصل حتى إلى المستشفى، أو ما إن يصل حتى ينال الشهادة، المشهد بنفسه مشهد مؤثر، يكفي أن تكون إنسانًا سليمًا طبيعيًا عاديًا؛ لتتأثر بذلك المشهد، مشهد مأساوي، مشهد يعبِّر عن مظلومية كبيرة جدًّا.

الأطفال الذين لا يزالون يعانون من الجراحة، ودماؤهم تنسكب، وأجسادهم تتلوى من الألم، وهم يصرخون من الأوجاع، مشهد مؤلم جدًّا، يكفي أن تبقى فيك بقايا من إنسانيتك؛ لتتألم، ولتدرك بشاعة ما يفعله أولئك الطغاة المجرمون بمثل هذه الجرائم التي يرتكبونها كل يوم، هذا بنفسه كافٍ في أن يكون لك موقف، ولكن أمام هذا كله، وهو مشهد كبير وداميٍ ومؤلم **جدًّا**، ويتكرر يوميًا، وتكرر بكثير وكثير؛ حتى طال الآلاف، وشمل معظم المحافظات والمناطق، وشاهده الكثير، أو يمكن للكثير أن يشاهدوه، مع ذلك البعض لا يبالي، لا

يكترث، لا تتحرك حتى فيه المشاعر الإنسانية، لا يأسى لذلك، ولا يتفاعل مع ذلك، نفسية كهذه، أمام مشاهد كهذه، متبلدة، وباردة، وجامدة، ومستهترة، ولا مبالية، هل هي مشاعر سليمة؟ (لا)، مرض، لم يعد إنسانًا طبيعيًا، لو بقيت له فطرته الطبيعية، ونفسيته السليمة، الله فطر الأنفس أن تتألم عندما تشاهد مآسٍ كتلك، مظلومية كتلك.

يتألم لها البعض من أطراف الدنيا، وترى البعض ممن هم يتسمَّون بأنهم متدينين وإسلاميين، مثل: بعض المنتمين لحزب الإصلاح، والتكفيريين، يرتاحون لمثل تلك الجرائم، ويبررونها، ويجوزونها، ويشرعونها باسم الدين نفسه، باسم الدين نفسه، بالافتراء على الله -سبحانه وتعالى- ولا يرون ضيرًا- كما قال أحدهم- في أن يقتل ولو أربعة وعشرون مليون يمني، ويبقى مليون واحد أو أقل أو أكثر، في مقابل أن يصلوا هم إلى السلطة، وأن يتحقق لهم في التنكيل بهذا الشعب ما يريدونه، ما يسعون له بأحقادهم، وضغائنهم، وأمراضهم، وعقدهم.

إذًا، الأحداث نفسها يتجلى من خلالها ما الناس عليه، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي مرض كان هذا: شك، حقد... أي ضغينة لابدَّ أن تخرج إلى الواقع، ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، حتى في تعبيرهم، في كلامهم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾.

الإمتحان الإلهي في مدرسة الحياة

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، كيف هو هذا الابتلاء، كيف هو هذا الاختبار؟ هل في مدرسة، يتجه الإنسان بقلم، ويستلم الصفحات، ويقوم يكتب الجواب على الأسئلة؟ أجل، مدرسة، لكن ليست على ذلك النحو، هي هذه الحياة، وما فيها من أحداث، وما تكتبه بأفعالك وأقوالك، وما تحدده بمواقفك وولاءاتك وعداواتك، أين أنت، وأين تتجه؟

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾، وأمام أحداث كهذه التي نحن نعيشها، نحن في مقام هذا الابتلاء، وفي مقام هذا الاختبار، وإلَّا متى؟ البعض يتصور أنَّ هذا الابتلاء لم يأتِ بعد، فهل ينتظر له ليأتي يوم القيامة؟ (لا)، نحن في هذا الزمن نعيش أمام هذه الأحداث والعواصف هذا الاختبار، الله -سبحانه وتعالى- أيضًا يوضح أنَّ ما يجلي: المؤمنين، والمنافقين، والذين في قلوبهم مرض، وهذه الفئات الموجودة- أصلًا- في داخل المجتمع المسلم، هو الأحداث، وهو التحديات، وهو مدى الموقف من هذه الأحداث.

في قصة غزوة الأحزاب، وقد أتى الأعداء بجموعهم وجيشوهم، وحاصروا المدينة المنورة، وأرادوا اجتياحها والسيطرة عليها، وتحرك رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ليتحرك بالمسلمين لمواجهة هذا التحدي، والقيام بالمسؤولية أمام ذلك

الخطر، يتحدث القرآن الكريم عن ذلك، يقول الله تعالى: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم﴾، أي: الأعداء، ﴿مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، فأحاطوا بالمدينة من كل الاتجاهات، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[الأحزاب: الآية١٠]، أي: كان للحدث أثره في الضغط على كثير من الناس، والتأثير النفسي والمعنوي عليهم، ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[الأحزاب: الآية١١]، وليس المقصود: هزات أرضية، هذا الزلزال يعني: مستوى ضغط الأحداث، تأثيرها، عندما يشاهدون أنَّ هناك فئات تخلخل الصف من الداخل، ومهزوزة جدًّا من الأحداث، لدرجة تسعى فيها للتنصل عن المسؤولية، ولتخذيل وتثبيط الآخرين، ويرون مستوى الخطر (خطر اجتياح الأعداء)، وما يمكن أن يحدث فيما لو تمكن الأعداء ونجحوا من السيطرة في سعيهم لاجتياح المدينة، فيسمى هذا زلزالًا، ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾، أي: ليس المقصود هزات أرضية، هذا زلزلة المشاكل والتحديات.

الطليعة الصادقة

ثم يقول -جلَّ شأنه-: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[الأحزاب: الآية٢٣]، وفي الروايات: أنَّ أول مصداق وأول طليعة لهذه الفئة من المؤمنين الصادقين هم: (علي بن أبي طالب، وجعفر بن أبي طالب،

وحمزة بن عبد المطلب)، وتشمل كل المؤمنين الصادقين الأوفياء، الذين يلقون الله بالوفاء، وهم قائمون بواجباتهم ومسؤولياتهم، ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾، ما تأثَّروا لا بالأحداث، ولا بالظروف، ولا صدمتهم المتغيرات ليتراجعوا عن مواقفهم؛ لأن مواقفهم نابعة من إيمانهم، ليست مواقف زائفة، فتجد كيف يتجلى موقف المؤمنين بثباتهم، بصبرهم، باستمراريتهم، بتحملهم للمسؤولية، وكيف يتحركون بناءً على هذا الأساس، لا يؤثر فيهم الإرجاف أبدًا.

نجد قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾، حشود آتية، وجيوش جرارة، ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[آل عمران: الآية ١٧٣] (**فَزَادَهُمْ إِيمَاناً**)، **أيضًا** عند المعاينة لجموع الأعداء وقوتهم لم يتراجعوا، ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾، **كذلك** عند الشدائد، والمحن، والآلام؛ يزدادون ثباتًا ونقاءً، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾[آل عمران: من الآية ١٤١]، خلصوا من الشوائب أكثر، بدلًا من أن تغرقهم، أو تعصف بهم تلك الشوائب فتخرجهم عن طريق الحق ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران: من الآية ١٤٦].

ثمرة الاستجابة لله -سبحانه وتعالى- هي صدق وعد الله، أن يحقق الله وعده، يمكن للناس أن يمروا بمتعرجات، بظروف صعبة،

بتحديات، فإذا تجاوزوا الاختبار، وتجاوزوا تلك المراحل الصعبة بثباتهم، وإيمانهم، وتضحيتهم، ووفائهم مع الله –سبحانه وتعالى–؛ فالله يفي معهم، ولا يمكن أن يخلف وعده، هو قد وعد بالنصر، ولكنه يختبر ويمتحن، كما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾، **اختبار أولا**: في من سيجاهد، **واختبار ثانيًا**: في من سيصبر، يصبر في المحطات والظروف الصعبة، من لديه روحية العطاء والثبات في كل المراحل، لا يتغير ولا يتبدل ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾، قناعتهم ثابتة، مواقفهم ثابتة، مسارهم العملي ثابت، ما هناك تبديل أبدًا، هذه الروحية الراقية المطلوبة. **في الحالة الثانية**: حالة التراجع التي تكشف عن خبث لدى الإنسان، وخلل كبير، ولا مصداقية في انتمائه، هذا جانب من الجوانب المهمة[٤].

***

(٤) المحاضرة السادسة من محاضرات الهجرة.

ثانياً: ذكرى الشهيد

ثم نأتـي إلى الحديث عن ذكرى الشـهيد وأهميتها من خلال خطاب السـيد عبد الملك بهذه المناسـبة لعام ١٤٣٩هـ حيث تحدث عن هذه المناسبة وأهميتها بقوله:

السـلام والرحمـة والمجـد والخلـود لشـهدائنا الأبرار، وتحية الإعزاز والإكبار والتقدير والتبجيل لأسرهم الكريمة المعطاءة، في هذه الأيام، منذ الثالث عشـر من جمادى الأولى وإلى الثامن عشـر منه، هناك مناسبة مهمة جدًّا، اعتدنا على إحيائها سنوياً، هي: الذكرى السـنوية للشـهيد، وهي من أهم المناسبات بدلالتها، وبمضمونها، وبما تتعلق به، وبما تحتاج الأمة إليه، سيما ونحن في مرحلة مهمة وحساسة، وبلدنا في العام الثالث على التوالي يواجه عدواناً أجنبياً ظالماً من قوى البغـي والعدوان، هو: العدوان الأمريكي السـعودي الإماراتي، الذي لا يألـو جهـداً في ارتكاب أبشـع وأفظـع الجرائم والانتهـاكات بحق الشعب اليمني المسلم العزيز.

حاجتنا إلى هذه الذكرى

ونحن في مواجهة هذا التحدي الهادف إلى احتلال بلدنا، واسـتهداف شـعبنا، وإذلال أمتنـا، وفرض خيـارات العمالـة والخيانة على شعبنا وعلى سائر شعوب المنطقة، نحن في أمسِّ الحاجة في ظل

أوضاعٍ كهذه، وفي مواجهة تحديات كهذه، إلى هذه الذكرى المعطاءة بالـدروس العظيمـة والمهمة، والتي نتـزود **منها**: قوة العـزم والإرادة الفولاذيـة، وقـوة التحمـل والاسـتعداد العالـي، الاسـتعداد العالـي للتضحية في مواجهة هذه التحديات مهما كان مستوى التضحيات.

أهداف الذكرى السنوية للشهيد

تهـدف هذه الذكـرى لأهداف متعـددة، فـي مقدمتها: التعظيـم والتبجيل والتقديس لأسـمى عطاء وأشـرف تضحية، **وهو:** عطاء الشهداء، وهي تضحياتهم التي كانت إلى أعلى مستوى: التضحية بالنفس، التضحية بالحياة، التقدمة لأغلى ما يمكن أن يقدمه الإنسـان فيـما بيـده، فيـما أعطـاه الله -**سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى**-، التضحيـة بالروح والحيـاة، بهذه الدنيا الفانية، وهو عطاءٌ عظيـم، وهي تضحيةٌ عظيمة، جديـرةٌ بالتقديـس والتبجيـل والتعظيم، **وكذلك** جديـرةٌ بالاحتفاء بهـا، والإشـادة بها، والافتخار بها، فشـهداؤنا هم تاج رؤوسـنا، وهم فخر أمتنا، وهم عنوان عزتنا وصمودنا وكرامتنا.

وأيضاً، يضاف إلى ذلك الاستفادة من هذه الذكرى بالاستلهام منهـا لـكل معانـي العـزة، ولكل مـا يسـاعد الإنسـان علـى الصمود والثبات في مواجهة التحديات، في مواجهة الأعداء والظالمين، الطغاة المستكبرين، ودروس كثيرة ومهمة، مثل لفت النظر- **أيضاً كذلك**- إلى أسـر الشـهداء، ومسـؤولية الأمة تجاههم، وغير ذلك من الفوائد الكثيرة لإحياء هذه الذكرى.

الشهادة.. ما ذا تعني؟

وحينما نتحدث في هذه المناسبة عن عنوانها الرئيسي (الشهداء)، نأتي في المقدمة إلى الحديث عن الشهادة، ما هي الشهادة، وماذا تعنيه الشهادة؟ من المعروف أن لدى البشر- بشكلٍ عام- اعتراف بتقديس الشهادة، وللشهداء منزلة رفيعة وعالية ومقامٌ عظيم وسامٍ لدى البشر بمختلف مشاربهم، ولهذا نلحظ **مثلاً** أن مختلف التياراتٍ والقوى، مختلف الأقوام، مختلف الملل، أغلبهم يسمون قتلاهم بالشهداء، قتلاهم في مواقفهم، في قضاياهم، في اتجاهاتهم ...إلخ. يطلقون عليهم لقب الشهداء، وحتى الأقوام- **أحياناً**- أو التيارات التي لا تعترف بالدين ولا تركز على مسألة الإيمان بالجنة والنار، أو لا تربط مواقفها بالمبادئ والقيم الدينية والأخلاقية، بل تعتبر اتجاهها في هذه الحياة، فيما هي فيه من مواقف وتوجهات، مجرداً عن ما يسمى: قيماً أخلاقاً، مبادئ، يطلقون عليه **مثلاً**: موقفاً سياسياً مجرداً، منفصلاً عن كل هذه الاعتبارات، أو أي عنوان من العناوين، حتى هم- في الغالب- يسمون القتيل منهم بالشهيد، يطلقون عليه عبارة الشهيد ومسمى الشهيد؛ وهذا **لأن** الوجدان الإنساني يقدر ويعز الشهداء، ويعترف بعظمة وسمو الشهداء، **ولذلك** حرص الكل أن يسموا قتلاهم بالشهداء، بغض النظر عن أي توجه، عن أساس الموقف، عن طبيعة الهدف، ... إلخ. ولذلك هذه أول نقطة، أو النافذة التي نطل منها على الشهادة.

الشهادة في سمو وعظمة منزلتها واعتبارها لدى الجميع، الشهيد في مقامه العظيم والعالي، وما حظي به من شرف باعتراف الكل، ولذلك يتنازعون على هذا المسمى، كلٌ يريد أن يكون قتلاه الذين ضحوا، أو قدموا وأعطوا في اتجاهه، أن يكونوا بهذا العنوان وبهذا الاسم، ونلحظ **مثلاً**: أن البعض لم يعد لديهم حتى فهم صحيح عن مسألة الشهيد الحق، والشهادة الحقة التي تعتبر وفق التوصيف القرآني، وفق التسمية الإلهية التي ارتبط بها الوعد الإلهي فيما وعد الله به الشهداء، حصل التباس لدرجة أن البعض **مثلاً** يتصور أن عنوان الشهيد يتعلق بأي قتيل، كل قتيل بنظرهم يعتبر شهيداً ويرون فيه أنه شهيد، باعتبار أنه قتيل، فمن قتل فهو في نظرهم شهيد، ولغياب **مثلاً** حالة التثقيف، أو تشوش حالة التثقيف والتوعية تجاه هذا الأمر وتجاه هذه المسألة.

طبعاً يمكن النظر إلى كثير من هذه الحالات التي يطلق فيها هذا المسمى على كثير من الناس بالعُرف، المسمى العرفي والعنوان العرفي، أي: شيء تعارفوا عليه بهدف التقديس، أو التثمين والتقدير للتضحية التي قدمها شخصٌ ما، لكن علينا أن نعي جميعاً ما هو **المعنى** الحقيقي والصحيح للشهيد والشهادة، ومتى يكون الإنسان **فعلاً** شهيداً في سبيل الله.

البعض يقدم الشهادة فقط وسيلة للتمتع

هناك أيضاً في الأوساط الدينية لدى البعض سوء تقديم وسوء ترغيب في الشهادة في سبيل الله، **فمثلاً**: البعض - حتى تحت العناوين الدينية - يقدم عنوان الشهادة وكأنها مجرد عملية انتقال بسبب الاستعجال السريع للانتقال إلى الجنة والتنعم بالحور العين، كثير يقدم الشهادة هكذا، **يعني** مسألة إنسان عجال، زهق من هذه الحياة يشتي يتنعم، يريد يرتاح، ومستعجل **جدًّا** للذهاب إلى الحور العين، ويأتي من بعض الأوساط ذات العناوين الدينية غير الواعية، يأتي كثيراً الشّد إلى الشهادة والترغيب في الشهادة تحت عناوين مادية بحتة: إما الحور العين، أو غير ذلك من النعيم، وأصبحت منهجية - ربما - لدى البعض، **مثل**: القوى التكفيرية، منهجية محاطة بأساليب معينة وطرق معينة، تُحدث تأثيراً في البعض، فيذهب **هكذا**: ليس لديه قضية، ليس لديه مبدأ، ليس لديه أي شيء، المسألة ملخصة عنده ومختصرة عنده في حدود أنه يريد أن يذهب ليجعل من عملية القتل وسيلة إلى انتقال سريع إلى هناك، إلى ما قد شدوا أنظاره إليه وعبأوه به بشكل جذاب ومغر **جدًّا جدًّا**، حتى بات لا يفكر في أي شيء، إلا في الحوراء ومعانقتها والحياة معها... إلخ.

المعنى الصحيح للشهادة

عندما نأتي إلى القرآن الكريم، نجد التعبيرات القرآنية تعبيرات حكيمة وهادية، وتقدم لنا -**كذلك**- المدلول الصحيح والتعريف الصحيح، ومع إحاطة المسألة هذه بالتعظيم والتقديس والتبجيل الكبير، يقول الله -**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**-: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾[البقرة من الآية ١٥٤]، ويقول -**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**-: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ • فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ • يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران من الآية: ١٦٩-١٧١].

الشهادة الحقة، الشهادة التي ارتبط بها الوعد الإلهي بالحياة الكريمة عند الله -**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**- والزلفى لديه، وأن يحظى الإنسان في تلك الحياة برعاية إلهية خاصة وعظيمة، حيث يحلُّ الإنسان الشهيد ضيفاً في رعاية الله، في كرامة الله -**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**-، محفوفاً بهذه العناية الإلهية، في ظل انتقال إلى حياة حقيقية مؤكدة، أُكِدَّت في النصين القرآنيين، وإن كانت غير الحياة المألوفة في واقعنا، ولا نعرف التفاصيل الكثيرة عن هذه الحياة إلا بحدود ما قُدِّمَ في القرآن الكريم، أو أُثِر عن الرسول -**صلوات الله عليه وعلى آله**-.

هـذه الحيـاة ينتقـل الإنسـان فيها إلـى حالة مـن الاطمئنـان التام، والأمن، والاستقرار النفسي، والاستبشار بجنةً الخلد التي هي ما بعد مرحلة القيامة والحساب، أي: ليست الحالة انتقال إلى جنة الخلد، ينتقل الشهيد إليها **مثلاً**، التي يمكن أو يفترض الانتقال إليها بالنسبة للمؤمنين والموعودين بها، ممن يرضى الله سعيهم في هذه الحياة، ويرضى عملهم، ويتقبل إيمانهم، والتي هي ما بعد قيام القيامة، هذه مسألة أخرى، الشهيد يحظى ما قبل ذلك بحياة لها شكلها الآخر في ظل رعاية إلهية مؤكدة عظيمة، في ظل ضيافة الله -**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**-، مستبشراً وفرحاً برزق الله، **﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾**، يتنعمون حقيقةً، الله أعلم عن تفاصيل هذا النعيم، عن تفاصيل هذه الحياة، عن كيفية هذه الحياة.

النص القرآني يؤكد أنها حياة حقيقية؛ لأن البعض- كذلك- يستبعدونها، ويتصورون المسألة- وفق تأويلاتهم- مسألة تحكي عن المستقبل البعيد، أو مستقبل ما بعد القيامة، فيما هي تأكيدات، وتطمينات...إلخ. لكن (لا)، النص القرآني يؤكد- بما لا يدع مجالاً للشك- أنها حياة حقيقية، وفيها النعيم، وفيها الرزق، وفيها الاستبشار بالمستقبل الموعود العظيم، وفيها الاستبشار بمن خلفهم، ممن هم في نفس الطريق، في نفس النهج، في نفس المشوار، في نفس المبادئ، في نفس التوجه، في نفس الالتزام، في نفس الهدف.

فالقرآن يؤكد هذا، هؤلاء الذين يحظون بهذا الشرف العظيم،

برضى الله عنهم، بتقديره العظيم لعطائهم ولتضحياتهم، لدرجة أن يخلّدهم في حياة أبدية، وأن لا يذهبوا إلى الفناء والانعدام للحياة إلى يوم القيامة، بل يحظوا حتى من بعد لحظات شهادتهم ومرحلة شهادتهم إلى قيام الساعة بهذه الحياة، بهذه الضيافة الإلهية، هذا تقدير كبير لعطائهم، وتمجيد وشكر لسعيهم ولعطائهم، أي: مكافأة إلهية عظيمة، تعبِّر عن عظمة هذا العطاء، وعن التقدير الإلهي والتثمين الإلهي والرضى الإلهي عن هذا العطاء، رضىً من الله، وقابل عطاءهم وتضحياتهم بحياتهم بهذا العطاء العظيم.

فالشهيد يرى نفسه ما بعد الشهادة، مع فارق لحظة السقوط في حالة الشهادة، يرى نفسه بعد ذلك في ذلك العالم، الله أعلم أين! وقد صار في ظل تلك الحياة في كل أجوائها، في ظل تلك الضيافة والرعاية الإلهية الكريمة والعظيمة.

في سبيل الله.. الهدف المقدس للشهيد

هذه الشهادة ليست مجرد توجه من الإنسان برغبة مادية بحتة، يعني: إنسان لم يكن يهمه من الشهادة إلا معانقة الحور العين، وإلا الوصول إلى تلك الماديات. (لا)، العنوان الواضح في الآيات القرآنية، سواءً في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ﴾، أو ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، هذا العنوان العظيم، المهم، الكبير، المقدس، وهو: **(فِي سَبِيلِ اللّهِ)**، يوضح أن

للشهيد قضية، وله هدف، وله مبتغى، ليس مجرد شخص لم يكن يفكر أبداً بأي شيء، ولا يهمه شيء، ولا يرتبط بشيء ما عدا ذلك الهدف المادي الذي استعجل للذهاب إليه، وكان مستعجلاً جدًّا للرحيل إليه. (لا).

الشهيد له مبدأ، له قضية، له أخلاق، له قيم، له أهداف، وهو ينطلق على أساس من تلك القضية؛ فيضحي وهو يحمل تلك القضية، هذه القضية يُعبِّرُ عنها في أنها قضية عادلة، وفي أنها قضية مشروعة، وفي أنها قضية مُحِقة، وفي أن الهدف فيها هدفٌ مقدس، بهذا العنوان الشامل الجامع، وهو: **﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾**، لا يمكن أن يكون هناك عنوان يعبّر عن: حق، وعدل، وصدق، وهدف مقدس، وتوجه صالح، وعمل مشروع، مثلما يعبّر هذا العنوان: **﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ لأن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-**.

وهو الملك الحق المبين، هو الحق، ومنه الحق، وهو الذي يرسم لعباده الحق، وهو -جلّ شأنه- هو ملك السموات والأرض، وهو الذي يشرع لعباده الشريعة الحق، ليرسم لهم معالم الحق، يعلمهم العدل، يقدم لهم في تعليماته، في توجيهاته، فيما يأمرهم، فيما ينهاهم، فيما يفصل بينهم، في كل ما يقدمه لهم... العدل، العدل في كل شيء، العدل في كل شؤون حياتهم، العدل في كل المواضيع التي يمكن أن تكون ذات خلاف، أو محل صراع، أو يمكن أن يحدث بشأنها

اختلافات ونزاعات، الحق من الله، هو الحق، ولا حق غيره، العدل فيما يقدمه لعباده، هو العدل بما تعنيه الكلمة، لا حيف فيه، ولا جور فيه، ولا ظلم فيه.

والله -**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**- رسم لعباده في هذه الحياة المبادئ التي تمثل المبادئ الحق لكل من يريد الحق في هذه الحياة، من يريد أن يكون ويهمه أن يكون على الحق في هذه الحياة، فالله رسم- من خلال أنبيائه ورسله وكتبه- المبادئ الحق، التي من التزم بها من البشرية، أياً كان، من أي صُقعٍ وأي قُطرٍ وأي منطقةٍ في العالم، من يلتزم بتلك المبادئ هي مبادئ حق، ورسم لهم طريق العدالة، وحدد لهم حدود العدالة، التي إن التزموا بها- **أيضاً**- كانوا على العدل، وحذَّرهم من الظلم، ونهاهم عنه بكل أشكاله، الظلم بكل أشكاله، بكل أساليبه: ما كان منه يطال الإنسان في نفسه وحياته: مثل قتل، أو مثل سجن، أو **مثل** أذى بالتعذيب، أو أي وسيلة من وسائل الظلم الذي يمسّ الإنسان مباشرة في حياته، أو في جسده، أوفي نفسه، أو ما يمسه في حقٍ من حقوقه في الحياة هذه: في ماله، أو في عرضه... أو غير ذلك.

يحدد متى يمكن أن يعاقب هذا الإنسان بحق، وأن يجازى بعدل، ومتى لا يجوز ذلك أبداً، وعلى كُل.. في سبيل الله، **هو**: عنوان للطريقة التي رسمها الله -**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**-، من ارتبط بها، والتزم بها، وسار على أساسها، والتزم بها في هذه الحياة، التزم بها سلوكاً، التزم بها موقفاً، وهي مجموعة من القيم الأخلاقية والإنسانية

والفطرية، والتعاليم العادلة، والتعاليم التي هي: عدلٌ، وصدقٌ، وحقٌ، وخيرٌ، وفلاحٌ، ورشدٌ، وزكاءٌ؛ لا حيف فيها، لا مساوئ فيها، لا خزي فيها، لا عار فيها، كلها شرف لهذا الإنسان، كلها خير لهذا الإنسان، كلها تعبر عن مصلحة حقيقية لهذا الإنسان، وللبشرية جمعاء **أيضاً**، فمن لقي الله في هذا الطريق، على أساس من هذه المبادئ والقيم والأخلاق، ملتزماً بها، يعتبر عند الله -**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**- شهيداً، يحظى بهذا النعيم، بهذا التكريم، بهذه الرعاية، بهذه الضيافة، بعدها نعيم يمتد إلى الأبد إلى ما لا نهاية له نهائياً أبداً، (**جَنَّةُ الخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ**).

من هو الشهيد حقاً؟

ولذلك لنع جميعاً، ما كل من يقتل فهو شهيد. (لا)، الذي يقتل بهدف باطل ليس شهيداً عند الله، كان يريد هدفاً، **يعني**: يسعى من وراء جهده القتالي **مثلاً** لأهداف مادية، باغياً فيها، معتدياً فيها، لا يملك قضية، ليس هو هذا الشهيد الذي يتحدث عنه القرآن الكريم والذي قدم له هذا الوعد الإلهي، من كان في موقف باطل، ليس في موقف الحق، لا يسمى عند الله شهيداً، ولا يعتبر عند الله شهيداً، ولا علاقة له لا من قريب ولا من بعيد بالوعد الإلهي للشهداء، من كان باغياً، ظالماً، مجرماً، وقُتِلَ في هذا الاتجاه الإجرامي؛ فهو مجرم،

هـو مجـرم، أي: المجرم ليس بشـهيد، المجـرم مجرم، المجـرم اتجاهه إلـى جهنم، ولا يمكن لـه أن يحظى بذلك النعيم والشـرف والتكريم والرعاية الإلهية، وذلك المجد والسناء... إلخ. (لا).

ولكـن من ينطلـق يحمل هذه القضيـة العادلة، والموقف الحـق المشـروع بحـق، ويضحي بهـدف سـام؛ هو شـهيد، وقد يكون الإنسـان **مثلاً** شـهيد مظلوميـة، أي: قُتِل بغيرِ حق، اعتـداءً عليه، بغياً عليـه، ولكن لـم يكن في إطار مسـئولية، هـذا شـهيد مظلومية، لكن شـهيد المسئولية، شهيد الموقف، شهيد الحق الذي يحمل قضية عادلة، ويتحـرك ويضحـي، مقامـه هـو أعلى مقـام، وموقفه هـو الذي حظي بذلك التمجيد والثناء، وارتبطت به تلك الوعود العظيمة والكبيرة من الله -**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**-، فهذه لمحة عن مدلول الشهادة.

وأيضاً من الأشـياء المهمة التي ينبغي أن نلحظها في موضوع الشـهادة: **أن الشـهادة ليسـت مجرد حالة من التضحية غير الواعية**، **يعني مثلاً**: الإنسـان (ضجر، تعقـد؛ يريد أن يتخلص من هـذه الحياة). (لا)، **الشـهادة**: تضحيـة واعية، هادفـة، بدافع إيماني، الشهيد **هو**: إنسان له مشاعره، له علاقاته، له ارتباطاته في هذه الحياة، إنسـان طبيعـي، إنسـان سـليم، إنسـان متّزن، يملـك فـي وجدانه كل المشاعر الإنسانية، يُحِب، له عواطف، له أحاسيس، له مشاعر... إلخ. ولكن هدفه السـامي، مشروعه الكبير، قضيته العادلة، هي كانت فوق كل اعتبار.

وأيضاً هذه المشاعر والأحاسيس تتحول إلى عامل مساعد، حتى محبته للناس، حتى محبته لأسرته، حتى محبته لأصدقائه، حتى محبته لأمته تتحول إلى عامل مساعد ومحفز على الشهادة في سبيل الله تعالى، نصرة لأولئك المستضعفين، ودفاعاً عنهم، ودفعاً للظلم عنهم، ودفعاً للاضطهاد عنهم، هي في الوقت نفسه تضحية واعية بحقيقة هذه الحياة.

الشهادة في ميزان الربح والخسارة

هذه الحياة هي حياة مؤقتة على كل حال، وإذا جئنا لندرس الشهادة في ميزان الربح والخسارة، وهل الشهيد خسر حياته، وترك ما هو فيه في هذه الدنيا، انتهى؟ (لا). إذا جئنا لنحسب الأمور في حساب الربح والخسارة، كلنا يعلم وكلنا يوقن أن وجودنا في هذه الحياة وجودٌ مؤقت، وأن الفناء محتومٌ علينا، والموت نهايةٌ حتميةٌ لكل الموجودين في هذه الحياة، الله (جلّ شأنه) قال عن الأرض: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن من الآية: ٢٦]، **كل من عليها**: ملوك، رؤساء، زعماء، قادة، كبار، رجال، صغار، نساء... الكل نهايتهم في هذه الحياة، في الوجود على كوكب الأرض، في الوجود في هذه الحياة، الفناء، الفناء أمر حتمي ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، يقول -جلّ شأنه-: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء من الآية: ٣٥].

هذا أمر واضح، ولهذا كم هي الأجيال التي رحلت من قبلنا، نحن اليوم جيل متأخر، في آخر الزمان، الله أعلم كم من الأمم، كم من المليارات من البشرية التي قد رحلت وفارقت هذه الحياة، عاشوا في هذه الحياة، كانوا في هذا الوجود عاشوا بحظهم، بنصيبهم في هذه الحياة، بمقدار ما كُتِبَ لهم في هذه الحياة، وما أُعطوا في هذه الحياة، وعاشوا هذه الحياة بحلوها ومرها، وصراعاتها ومشاكلها، وخيرها وشرها، وما فيها... ورحلوا جيلاً إثر جيل إثر جيل، لم يستطع جيل، ولم يستطع أحد من البشرية، أن يبقوا خالدين في هذه الدنيا، وأن يتخلصوا من الفناء، وأن يدفعوا عن أنفسهم الموت، وأن يعيشوا إلى الأبد.

فنرى **مثلاً** في عصرنا شخصاً له كذا كذا آلاف من السنين، وكذا كذا مئات الآلاف أو عشرات الآلاف في عمره من الأعوام. (لا)، أجيال إثر أجيال، كان فيهم: الملوك والمقتدرون، والأغنياء ذو الثروة الهائلة، من لو استطاع أن يشتري في هذه الحياة بأموال كثيرة وهائلة، أو بكميات هائلة من الذهب والفضة، أو من المبالغ، أو من النفائس، أعماراً طويلة ومُدداً وآجالاً متأخرة لفعلوا. (لا)، يطويهم الزمان (الموت)، يأتي عليهم الفناء، يحلُّ بهم أمر الله -**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**- الغالب القاهر، ويرحلون، وأصبحت هذه مسألة حتمية، معروفة عند البشر، لا أحد يستطيع أن يدَّعيَ لنفسه الخلود في هذه الدنيا وفي هذه الحياة، كُلُّ منا يوقن أنه سيموت وأن الفناء محتومٌ عليه، فهذه أول

حقيقة من الحقائق التي تجعلنا ننظر إلى الشهادة، ونفهم كيف هي في ميزان الربح والخسارة: أنه لا بد لكُلٍ منا من الرحيل من هذه الحياة، وأننا موجودون ضمن آجال وحدودٍ معينة، لك أجل لا يمكن أن تتعداه نهائياً، هذه واحدة من المسائل.

حقيقة أخرى من الحقائق: كلنا لا يدري ولا يعرف متى سيموت؟؟ ما أحد يعرف بالتحديد والتأكيد واليقين أن وفاته ستكون في عام كذا، في يوم كذا، في وقت كذا. (لا)، ما أحد يعرف على وجه اليقين والتأكيد متى سيموت، ولا كيف ستكون نهايته في هذه الحياة، هل وفاة بالشكل الطبيعي، هل بمرض معين، هل بحادث من الحوادث؟ بعضهم **مثلاً** حادث اصطدام سيارة، أو انقلاب سيارة، أو أي حدث من الأحداث الكثيرة **جدًّا** والمتنوعة في هذه الحياة، والتي تنوعت أكثر في زمننا هذا، في زماننا هذا تنوعت الحوادث بشكل أكثر وأوسع، كيف هي نهايتك في هذه الحياة؟ لا تعرف.

أيضاً أين، أين ستكون نهايتك؟ أين ستلاقي حتفك؟ أين سيأتي الموت وأنت في أي مكان؟ ﴿**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**﴾[لقمان من الآية: ٣٤]، ما تعرف أي أرض ستكون فيها نهايتك، في بقعة، في أي منطقة؟ لا تعرف هذا. هذه حقائق مؤكدة بالنسبة لكلٍ منًّا، لا بد من الفناء، لا بد من الموت، لا يعرف الإنسان متى، ولا كيفٍ، ولا أين.

الشهادة فرصة لتستثمر موتك

فإذاً، ليست الشهادة هي السبب الوحيد لانتقالك من هذه الحياة، فإذا فرضنا أنك لم ترزق الشهادة ستبقى في هذه الحياة؟. (لا)، بل هي أفضل وأرقى وأسمى عملية استثمار من فناء محتوم وموت لا بد منه وانتقال حتمي، انتقال لا بد منه، إذاً الله -**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**- بفضله، بكرمه، برحمته، فتح فرصة أمام عباده لاستثمار هذا الفناء وهذا الموت وهذا الانتقال من هذه الحياة المحتوم الذي لا بد منه، لاستثماره بشكل ينتقل الإنسان فيه درجة عالية، منزلة رفيعة، نعيماً عظيماً، فضلاً عظيماً، أجراً كبيراً عن طريق الشهادة في سبيل الله. بأن تتحرك في طريق الحق، في مقارعة الظلم والطاغوت والاستكبار، بأن تتحرك؛ **لأن** الشهادة في سبيل الله ليست عملية تفاني للدفاع عن الله، -جلّ شأنه- هو الغني، هو الغني، لا يناله ضرٌّ من أحد من خلقه أبداً، ولا حتى **مثلاً** عملية الإنسان يدافع فيها عن الدين، **بمعنى**: أنه هذا الدين أصبح عبئاً علينا، وإذا لم ننطلق نحن لندافع عنه خلاص مات وانتهى، الدين هو لنا، هو: **عبارة عن برنامج حياة**، إذا أخذنا به سعدنا، وشرفنا، واعتززنا، وكرمنا، وكان فيه خيرٌ لنا في الدنيا والآخرة، وليس عبارة عن شيء ثانوي خارج حياتنا، خارج واقعنا، خارج مصلحتنا، خارج ما هو مفيدٌ وخيرٌ لنا، ومثَّل هناك عبئاً نضحي من أجله، هو لنا، مصلحة لنا، خير لنا، فضل لنا، أجر لنا، شرف لنا في الدنيا والآخرة.

وعلى كُلٍ، عمليّة الاستثمار هذه تحدث عنها القرآن بعبارة عظيمة ومهمة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة الآية: ٢٠٧]، كيف ختمت هذه الآية المباركة، شطرٌ منها هو ختامها، بهذا التعبير العجيب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾، يعني: يبيع نفسه عن طريق التضحية بهذه النفس ﴿ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ﴾، في الوقت نفسه يقول: ﴿وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾، يعني: من رأفة الله بنا ورحمته لنا أن فتح لنا مجالاً لاستثمار هذه النهاية الحتمية، هذا الرحيل المحتوم الذي لا بد منه من هذا الوجود، من هذا العالم، من هذه الحياة، ليكون على نحو نستفيد منه فيما يكتب به ويكتب له ويكتب عليه، ما يكتب لأجله من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ما يكتب به من فضل الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-؛ فتفتح لنفسك بهذه التضحية الآفاق الواسعة من رحمة الله، من فضله العظيم الواسع الكبير، من رعايته الكريمة، هذا يعتبر -فعلاً- أمراً عظيماً وشرفاً كبيراً جدًّا.

ولهذا لاحظوا، البعض مثلاً يستغلون -سيما في ظل الصراع- يستغلون مسألة الشهداء والتضحيات، وبالذات في مثل هذه الحالة من الصراع الساخن، الذي فيه كل يوم شهداء، المسألة هذه لمحاولة الإيغار للصدور، والتحسيس للناس بأن التضحية خسارة، التضحية في سبيل الله، في قضية عادلة، في قضية محقة، خسارة وغبن...إلخ. (لا)، ليست غبناً، هذا شيء مهم جدًّا.

المؤمن ومعادلات الصراع

أيضاً، من المسائل المهمة التي ينبغي أن نلحظها في هذا الموضوع: أن الشهداء هم يتحركون- أيضاً- بوعي عن طبيعة الصراع في هذا الوجود وفي هذه الحياة، أي: الحياة هذه (الحياة الدنيا) هي ميدان مسؤولية وميدان اختبار، واحدٌ مما فيها، ومن أهم ما فيها، ومن أهم ما لازمها في واقع حياة البشرية، وعلى مر التاريخ، ومنذ الوجود المبكر للبشرية، منذ أبناء آدم وإلى اليوم، حالة الصراع؛ لأن هذا الإنسان حتى يصبح مُمَكَّناً، ويصبح مكلفاً ومسؤولاً في هذه الحياة، مُكِّنَ من الخير ومُكِّنَ من الشر، وقال الله -**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**-: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد من الآية: ١٠]، **قال أيضاً**: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس من الآية: ٧-٨].

الوجود البشر هو وجود مسؤول في هذه الحياة، ومسئوليته كبيرة وعظيمة ومهمة وواسعة، ودوره أساس في هذا العالم، وهذا الإنسان ألهمه الله في نفسه (الفجور، والتقوى)، ومُكِّنَ من الخير ومُكِّنَ من الشر، وأعطاه الله القدرة ليفعل بها الخير، أو يفعل بها الشر، **أي**: مُكِّنَ من هذا، وأراد الله له وأمره بفعل الخير ونهاه عن الشر، وحمَّله مسئولية اختياره: إن اختار الخير؛ كافأه وجازاه خيراً، وإن اختار الشر؛ فيتحمل مسئولية هذا الاختيار، وعواقب هذا الاختيار، ونتائج هذا الاختيار فيما سيحاسب ويعاقب على ذلك.

وبنـاءً على هذا اختلفـت اتجاهات البشـر- وكما قلنـا- منذ الوجود المبكر للبشر، منذ أبناء آدم الأوائل تحركت وأثرت نزعة الشر وميول الشـر، ميول الهوى، النزعة العدوانية، التوجه نحو الفجور في البعـض، والبعض الآخر كانت خياراتهـم واتجاهاتهم في هذه الحياة فـي اتجـاه الخير، وفي اتجاه التقـوى والانضباط والالتـزام، في إطار القيم، في إطار الأخلاق، في إطار الضوابط الشرعية.

فـي واقعٍ كهذا أصبح من البديهيات، وشـبه لازم من لوازم الحياة، **أي**: مسألة واقعية لازمت الوجود البشري في كل مراحله، **هي**: حالة الصراع، ووفر لهذا الإنسـان في هذا الوجود حتى الوسـائل التي تستخدم في الصراع، أي: **لاحظوا مثلاً**: الخيول في زمن طويـــل كانـت آلات ووسـائل عسـكرية خلقهـا الله -**سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى**-، خلقهـا وأعدّهـا عسـكرياً لتلائـم الأداء القتالـي وظـروف الحـرب، واستخدمها المؤمنون، واسـتخدمها الفاجرون والظالمون وأهل العدل وأهـل الظلم، كُلاً يركب خيله يسـرح يقاتل عليـه، هُيّئ **مثلاً** الحديد كوسـيلة أساسية يستخدمه أصحاب القيم المحقّة، القضايا العادلة، في الدفاع عن أنفسـهم، عـن قضاياهم العادلة، عـن وجودهم، عن الحق الـذي ينتمـون إليـه، اسـتخدمه- **أيضاً**- الآخـرون من بني الإنسـان فـي ظلمهم، في جورهـم، في طغيانهم، في بطشـهم، فـي جبروتهم، ﴿**وَأَنزَلْنَـا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَـدِيدٌ**﴾[الحديد من الآية: ٢٥]، **بأس**: يسـتخدم

عسكرياً على نطاق واسع، واتسعت الاستعمالات العسكرية في زمننا وفي عصرنا هذا للحديد في وسائل كثيرة **جدًّا جدًّا**، تطورت كثيراً.

فوجد لهذا الإنسان، ووفر له ضمن هذا الاختبار، ضمن هذه المسؤولية، وسائل هذا الصراع، حتى على المستوى العسكري، ولذلك **لاحظوا**، من يتصور هذه الحياة: حياة يعمها السلام بدون أي مشاكل ولا صراعات، ويتخيل هذه الحياة وهذا الوجود في الدنيا، وجوداً لا تحفُّه أي مخاطر، ولا تدخل فيه أي تحديات؛ فهو حالم، **يعني**: خيالي، غير واقعي.

من المسؤول عن مشكلة الصراع في الواقع البشري؟

ولم تكن- أبداً- المشكلة لا في الصراعات، ولا في النزاعات، ولا في الأخطار، ولا في جلب المِحن والمشاكل على البشرية هو الحق وأهله، هو العدل وأصحابه. (لا)، الذي يتحمل في الواقع البشري مشكلة الصراع والنزاع، وما يترتب عليه، وما ينتج عنه، والذي يجلب المآسي والويلات والنكبات إلى الواقع البشري، هم قوى الشر، هم قوى البغي، هم قوى العدوان.

تصبح الحالة الأخرى التي تتصدى لقوى الشر، تتصدى لقوى العدوان، تتصدى للبغي وأهله، لعناصر الشر، من ينتمون إلى مبادئ الحق، مبادئ العدل، مبادئ الخير الفطرية والإنسانية والإلهية،

هم في موقف الحق، الموقف الضروري، الموقف الذي لا بد منه ضمن حكمة الله وعدله، وضمن سننه -جلّ شأنه-، **بمعنى**: لا يتصور أحد أنه عندما نتحدث عن الشهادة، أو عن الجهاد بمفهومه الصحيح، وليس المفهوم المشوه، الإجرامي. (لا)، بمفهومه الصحيح الذي هو تجسيد للحق والعدل والقيم العظيمة، والذي هو وسيلة حماية للمستضعفين، وسيلة وقاية في مواجهة الأشرار والمتسلطين والطغاة والمفسدين والمستكبرين والظلمة.

فلا يتصور أحد أن المشكلة هذا الكلام، وشهداء، وجهاد، ونحو ذلك... (لا). ما الذي يتصور البعض أنه يمثل الحل؟ **مثلاً**: لو افترضنا أن كل ما يرتبط بالخير والقيم والأخلاق والعدل يُعطَّل، ونقُول انتهى، نترك الحياة هذه للشر وأهله: للمجرمين، للطغاة، للمستكبرين؛ حتى نسلم المشاكل، حتى نهدأ ونرتاح؛ فنمكن الطغاة هؤلاء والمجرمين الذين يستخدمون وسائل القوة والجبروت والبطش والظلم والطغيان والسفك للدماء من أجل فرض تسلطهم وسيطرتهم، ومن أجل تمكنهم من الاستحواذ على كل شيء، والتحكم بكل شيء، لماذا لا ندعهم يتحكمون بكل شيء، يسيطرون على كل شيء، يتغلبون على كل شيء، يحققون أهدافهم؛ حتى نسلم حالة الاصطدام، التي يرى فيها البعض أنها حينما أتى تَبَنٍّ **مثلاً** لمنطق الحق، وموقف الحق، ومبدأ الحق، والتمسك بالعدل، حدث بينها اصطدام ما بين العدل والظلم، ما بين الخير والشر، ما بين الحق والباطل.

المسألة ليست كذلك، يعني لو افترضنا أنه تُرك للأشرار، والطغاة، والمتسلطين، والمستكبرين، والظالمين، والمجرمين، والمتجبرين، والمستكبرين، والعبثيين، واللاهين، والمستهترين في هذه الحياة أن يفعلوا ما بدا لهم، هل يمكن أن يعمَّ السلام والاطمئنان والخير، ونسلم المشاكل، طالما أنه لا يوجد منطق حق، ولا كلمة حق، ولا موقف عدل، ولا ولا ولا...؟!، (لا). **يا أخي** المسألة حينها يحدث ما هو أفظع وأسوء وأشد سوءً بما لا يمكن أن يصل إليه خيال، ولا أن يبلغ مداه تفكير أبداً.

بمعنى: أن التمكين للمتسلطين والطغاة والمتجبرين والأشرار، لا يحل المشكلة، لا يوقف الصراع، لا ينهي حالة النزاع. (لا)، إنما يمكنهم لممارسة نزغاتهم، دوافعهم، حالة الشر بالنسبة لهم باتت حالة نفسية تنزع إليها وتندفع لها أنفسهم، أصبحت ممارسات اعتيادية، وأصبحت سلوكاً هم عليه، **معنى ذلك**: أن يمكنوا من ارتكاب ما يريدونه من ظلم، من جبروت، من طغيان، **معنى ذلك**: أن تعظم المأساة بشكل رهيب جدًّا، وأن تعظم المحنة على البشرية، وأن لا يبقى للعدل وجود، ولا للخير وجود، أن تفسد الحياة نهائياً، هذه كارثة، **أي**: من يفكر هذا التفكير الأحمق (أن التمكين للطغاة، والمستكبرين، والظالمين، والمجرمين، والعبثيين، والمستهترين، واللاهين، وغير المنضبطين في هذه الحياة، وغير الراشدين وغير

الخيّرين في هذه الحياة، تمكين لهم من كل شيء سيحل المشكلة)، لن يحل المشكلة، بل وأكبر مشكلة، أخطر مشكلة، أعظم مشكلة، ولا يتخيل الإنسان مدى النكبات والويلات والمصائب والمآسي الرهيبة **جدًّا جدًّا جدًّا** التي ستحل بالناس إن حدث ذلك.

حتمية الصراع ضد قوى الشر

والقرآن الكريم قدّم لنا فيما يتعلق بهذا الشأن عبارةً مهمةً جدًّا، قال الله -سُبحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة من الآية:٢٥١] لفسدت الأرض، لكن سنة الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هي: أن يدفع بعض العباد، البعض من الناس بالبعض الآخر؛ فيتجه البعض الآخر هؤلاء ليحدوا من شر أولئك، من طغيان أولئك، يحدث هذا الصراع تلقائياً؛ **لأن** قوى الشر والإجرام والطغيان تتسلط هي، تبتدئ هي، ما تحتاج أن تتعب نفسك بشرعنة موقفك كمنتمٍ للحق، كمظلوم، كمنتمٍ للعدل، كإنسان يحرص على أن يكون حراً في هذه الحياة من استعباد الطغاة وتسلطهم، ما تحتاج أن تتعب نفسك في شرعنة موقفك؛ هم يكفونك المؤونة، هم دائماً المبتدئون بعدوانهم، كما في القرآن الكريم: ﴿وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة من الآية: ٦٢].

انظر اليوم إلى واقع أمريكا، انظر إلى واقع إسرائيل، انظر إلى

واقع من يرتبط بأمريكا وإسـرائيل مـن عملائهم، حتى من أبناء العالم الإسـلامي، أليسـوا هم من يبتدئـون الآخرين بعدوانهم؟ أليسـوا هم من يبتدئون الآخرين بالاسـتهداف لهم؟ أليسـوا هم من يسـعون لقتل الآخريـن، بـل يباشـرون قتـل الآخرين، وظلـم الآخريـن، واضطهاد الآخريـن، والتحـرك العدائي ضد الآخرين، والسـعي لاحتلال أرض الآخرين... إلخ.؟ تدمير لمقدرات الآخرين، يفعلون كل شيء.

فـإذاً، الصـراع حتمـي في هـذه الحيـاة، وفـي ظـل وجود هـذا الصـراع إمـا أن تكـون أنـت في صـف أولئـك الطغاة، طـاغٍ من الطغـاة، مجـرم مـن المجرمين بقدر مسـتواك المعيـن، إما إنسـان تافه، مجـرم، يجعلـون منك أداةً لتنفيـذ جرائمهم، جنديـاً تتحرك في صف الطغـاة والظالميـن والمجرمين، مشـاركاً لهم في الـوزر والإثم والظلم والاضطهـاد، ومتحملاً معهم أوزاراً فظيعة، وعاراً كبيراً، وخزياً أبدياً؛ وقُدَّامك جهنم -والعياذ بالله-، وإذا قتلت في هذا السـبيل لا تعتبر لا شهيداً، ولاهم يحزنون، أبداً، مجرم بكل ما تعنيه الكلمة.

وإمـا أن تكون متمسـكاً بالحق والعـدل والقيم والمبادئ المحقـة الإنسـانية والإلهيـة؛ فتحـرص علـى أن تكون حراً من تسـلط الطغاة، ومن الاسـتعباد لهم، أن لا تقبل بالعبودية لغير الله -**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَـى**- لأي طاغية في هـذا العالم، لأي مجرمين فـي هذه الدنيا، لأي مستكبرين في هذه الأرض، ولا تقبل بالعبودية إلا الله -**سُبْحَانَهُ**

وَتَعَالَى-؛ **لأن** هـذا هو فعلاً التحرر الحقيقي، وتصمد على موقفك هـذا؛ **لأنهم** لـن يقبلوا منـك، **أي**: هذه مشـكلة عندهـم **جدًّا**، **الآن مثلاً**: في زمننا هذا مشـكلة عند الأمريكي، مشكلة عند الإسرائيلي، مشكلة عند عميل الأمريكي وعميل الإسرائيلي.

يقول لك: (لا)، وسيطلق عليك ما يرغب به من توصيفات، ويبرر موقفه ضدك؛ **لأن** المسألة في نهايتها أن تكون عبداً لهم، خاضعاً لهم، خانعـاً لهم، مستسـلماً لهم، طوعاً لأمرهم، خانعـاً لتوجهاتهم، مصغياً لإملاءاتهـم، هـذه هي المحصِّلة في النهاية، **وهـم أين هم**؟ إن جئت للعملاء من المنطقة العربية، **مثل**: السعودي والإماراتي، هل له مشروع أصيل، ينبثق من هويته التي ينتمي إليها ويدعي الانتساب إليها؟ (لا)، في ضمـن الفلك الأمريكي يدور، ويتحرك بشـكلٍ واضحٍ ومفضوح منتمياً إلى الجبهة الأمريكية، الجبهة الأمريكية: رايةُ طغيانٍ، اسـتكبار فـي هذا العالم، ظلـم، احتلال، غزو، اعتداء، بغي، إجرام، إفسـاد في الأرض، إهلاك للحرث والنسل، تهديد للقيم الإنسانية... الخ.

وإما أن تكون ضحية بدون موقف، **أي**: لا أنت وقفت بشكل رسمي وواضح في جانب الطغيان، في جبهة الشر والطغيان، ولا أنت وقفت بشكل واضح ومبدئي في جبهة الحق والخير في هذا الوجود، في هذه الحياة، وأردت لنفسـك أن تكون بـلا موقف، هكذا منتظراً- على حسـب اتجـاه البعض- لمن سيحسـم المعركة؛ لتكـون في صفه،

وفي ظل هذه الحالة من الانتظار العبثي تأتي الأحداث، وتدوسك الأحداث، تأتي الأحداث لتكون ضحيةً لها، كثير من الناس (يأتي لهم يا قصف، يا أي شيء من جانب قوى الشر، وخلاص يخسر كل شيء)، أي: لا يسلم في ظل هذا الصراع الساخن في الحياة، لا يسلم من امتدادات ونتائج وتبعات هذه الأحداث، هذه الأحداث تشمل الجميع، وتصل إلى الجميع، وآثارها ونتائجها تَعُمُّ الجميع، ما يستطيع أحد يكون بمنأىً عن آثارها، عن تداعياتها، عن نتائجها، ما يستطيع، هذا أمر واضح.

الشهداء والمنطلقات الصحيحة

١- **الشهداء عندهم وعي بهذه الحقائق**، عندهم وعي أن الوجود البشري ليس للدعة والاسترخاء في هذه الحياة، ونحن في عالم الدنيا وهو غير عالم الجنة، ليس عالماً للدعة والنعيم، هو عالم للمسؤولية، السعادة فيه بقدر ما يتحقق للعدل.

٢- **المبادئ والقيم العظيمة والسامية** التي تُصلِح هذه الحياة لا بد لإقامتها من تضحية؛ **لأنها** تعارض بشدة من قِبَلِ قوى الشر والطغيان، وتُحَارَب بشدة من قبل قوى الطغيان، وهذا الذي حصل حتى مع الأنبياء أنفسهم، ما سلموا لا من أعداء، ولا من استهداف، ولا... أبداً، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾

[الفرقان من الآية: ٣١]، نبي، بكل مقامه العظيم، بكماله السامي والعظيم، بقيمه الراقية **جدًّا** يحارب من الكثير، يستهدف من الكثير، يؤذى من الكثير، الكثير من الأنبياء استشهدوا، في طليعة الشهداء عدد كبير من أنبياء الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فالشهداء ينطلقون من وعي بواقع هذه الحياة، وحقيقة هذه الحياة، وظروف هذه الحياة، ويرون أن حساب الشهادة حساباً ضمن حسابات الربح، وليس ضمن اعتبارات أو حسابات الخسارة، وأنه أداءٌ وتضحية واعية ورابحة وفائزة، نتيجتها الفوز العظيم، ومردودها الايجابي في الحياة عظيم **جدًّا** في الدنيا نفسها، الشهداء بصمودهم وتضحياتهم يقدمون لمن خلفهم من أممهم، من أقوامهم، من شعوبهم، يساعدون على تعزيز الأمن والاستقرار والحماية والدفاع، ويدفعون عنهم الكثير من الشر، الكثير من الظلم، الكثير من الاضطهاد، من الاستعباد... إلخ.

فيَحِقُّ للشهادة أن تُستوعب كثقافة عظيمة، وكعطاء مقدس وعظيم وسامٍ، له آثاره العظيمة في الحياة ونتائجه المباركة، ويدفع عن الناس الكثير من التضحيات والخسائر العبثية، غير المحسوبة، غير المثمرة؛ **لأن** الناس لو لم يتحركوا لدفع الظلم عن أنفسهم، لمواجهة الطغيان والشر والاستكبار؛ يمكن أن يداسوا، وأن يستباحوا، وأن يقتلوا بدمٍ بارد، وتكون تضحياتهم غير مثمرة، لا تدفع

عنهم شيئاً، لا تسهم في تحقيق نصر، ولا في دفع خطر، ولا في الوقاية من شر، فيتحتم أن يكون هناك توعية، من المهم أن يكون هناك توعية كبيرة بهذا الشأن، واغتباط واعتزاز بالشهداء وبتضحياتهم وبأسرهم.

في ظل عطاء الشهداء.. ما المطلوب منا تجاههم؟

هنا يهمنا بعد كل هذا الشرح والحديث أن نتحدث حول بعض النقاط فيما يتعلق بالشهداء، وأتوجه بهذا الخطاب إلى شعبنا العزيز: من المهم **جدًّا** ونحن في كل يوم نقدِّم شهداء يومياً، ما يمر بنا يوم في ظل التصدي للعدوان الأمريكي الإسرائيلي الإماراتي السعودي الغاشم على بلدنا وشعبنا نحن كل يوم نقدِّم الشهداء الذين يبذلون حياتهم في سبيل الله، ودفاعاً عن شعبهم، وعن بلدهم، وعن أرضهم، وعن عرضهم، وعن أمتهم، وعن قيمهم، وعن مبادئهم، وعن أخلاقهم، ويهمنا في ظل هذا العطاء العظيم اليومي أن يكون هناك اهتمام بالشهادة كثقافة، وبالشهداء وما ينبغي علينا تجاههم:

أولاً: استذكار مآثرهم وتخليدها، طبعاً الاعتزاز بالشهداء من خلال جملة إجراءات، **مثلًا**: ما يقوم به الكثير من مراسيم للدفن، وإجراءات فيها التوقير للشهداء والتعظيم والتبجيل، هذا شيء جيد، وللشهداء الحق في أن يميّزوا في ذلك، يضاف إلى ذلك- أيضاً- ما ينبغي علينا حتى على مستوى الكتابات، على مستوى

التوثيق الإعلامي، على مستوى النشاط التوعوي... التخليد للمآثر، والاستذكار لها بكل الوسائل المتاحة.

ثانياً: ربط الجيل الناشئ بذكراهم، سواءً فيما يتعلق بأبناء الشهداء، وهذا مهم **جدًّا؛ لأن** البعض ينشأ، أو استشهد والده وهو في مرحلة الطفولة، عندما يكبر من المهم أن يعرف عن والده، عن تضحية والده، وعن الشهداء بشكل عام، وعن نماذج عظيمة كان لها مواقف استثنائية وبارزة جدًّا، وهذا شيء **يجب** أن يُلحظ، هذه من الأشياء المهمة فيما يتعلق بهذا المجال.

سلبيات ينبغي تجنبها

هناك أيضاً بعض السلبيات التي تحدث في عمليات التشييع، في مراسم التشييع ومراسم الدفن، نأمل تجنبها، **ومنها**: إطلاق النار هذا **يجب** تجنبه نهائياً، إطلاق النار **يجب** تجنبه نهائياً، ولا ينبغي أبداً أثناء مراسم التشييع أو الدفن، هذا أمر خطير وسلبي إلى حد كبير.

هناك **أيضاً** بعض الأشياء التي تحصل وليست مطلوبة، **مثلاً**: الزغاريد أثناء مراسيم التشييع أو الدفن من بعض أمهات الشهداء، طبعاً يقدر بكل إعزاز، وبكل تقديس، وبكل تبجيل، لأسر الشهداء وأمهات الشهداء وأرامل الشهداء ما هم عليه من تماسك، من معنويات

عالية **جدًّا**، من اعتزاز بعطائهم، من افتخار بتضحياتهم، هذه المعنويات العالية، هذا الابتهاج بهذا العطاء، وهذا الاعتزاز بهذه التضحيات، هذا أمر عظيم، ويُقَدَّر، ويشكرون عليه، وهم فخرٌ لنا أسر الشهداء فيما هم عليه من معنويات وشجاعة وثبات وتماسك واعتزاز بالتضحية، ولكن ليس من الضرورة أن يكون هناك **مثلاً**: زغاريد، أو إظهار للزينة.

هذه خطوة ليست ضرورية؛ **لأنه** يمكن أن يكون هناك تأكيد على الجانب المعنوي، وهذا يحصل، كثير من أمهات الشهداء، من أرامل الشهداء، من أقاربهم، من آبائهم، من إخوتهم يتحدثون بعبارات عظيمة **تؤكد** الصمود، وتعبِّر عن المعنويات العالية، **وتؤكد** على القناعة بهذا الموقف، وعلى الاعتزاز بهذه التضحية، وعلى الاستمرار في هذا الطريق، هذا يحصل، ونشاهد الكثير من المقابلات مع: آباء، إخوة، أقارب، **كذلك** أمهات، أخوات، أرامل... هذا يحصل، **ويطلقون** فيها مواقف عظيمة **جدًّا** ومؤثرة؛ **لأنها** من واقع، **لأنها** في حالة مصداقية مؤكدة وواضحة لا لَبْسَ فيها، تترك أثراً كبيراً، وتدل على ثبات عظيم، **يكفي** مثل هذه الكلمات العظيمة المعبرة، المواقف العظيمة، لكن مسألة الزغاريد لا حاجة إليها.

مسألة الزينة وإظهار الزينة لدى البعض **مثلاً** لا حاجة لها في ذلك المقام (في مقام الشهادة)؛ **لأنه** هو مقام اعتزاز **فعلًا**، وفي الوقت نفسه نحن نحزن لفقدانهم، نعتز بعطائهم وبالتضحية من جانبهم

وبهم، ولكن في الوقت نفسه نحن نحزن، مشاعرنا الإنسانية طبيعية **جدًّا** في الحزن عليهم مع الصبر، هذا شيء مؤكد، مع التجلد، مع التماسك، مع الاعتزاز، هذا شيء يُلحظ.

من الأشياء التي نلاحظها في التلفزيون في مشاهد التشييع للشهداء: أن البعض أثناء حمل الشهيد، وهم يتجهون به لدفن الجثمان، يسرعون بشكل زائد، يسرعون في المشي، وهذا لا ضرورة له، ولا ينبغي شرعاً، أي: يفترض أن تكون المشية مشية وقار، لا مسارعة بزيادة: مسرعين، ولا متثاقلين، هذا مما نأمل أن يُلحظ.

فيما يتعلق بموضوع أسر الشهداء، ونحن نعتز بتضحياتهم، والبعض من الأسر قدَّمت تضحيات كبيرة ومتميزة، **يعني مثلاً:** البعض من أسر الشهداء قدَّمت كل رجالها، لم يبقَ إلا الأطفال والنساء، هؤلاء لهم فضل عظيم في التضحية، وهم القدوة، وهم الأصل في مستوى العطاء والتضحية، ونحن نؤكد دائماً على الإخوة في الجانب العسكري وفي وزارة الدفاع أن يمنع وحيد الأسر من المشاركة في الجبهات، أي: من لم يبقَ لأسرته إلا هو هناك آخرون يمكن يذهبوا هم إلى الجبهات، لكن من لم يبقَ لأسرته إلا هو، من المهم أن يعود إلى أسرته ليتواجد بين أسرته، للقيام بأسرته، أي: لا نفترض من الأسر أن تقدم كل أبنائها، حتى لا يبقى إلا الأطفال والنساء. (لا)، هذه تضحية كبيرة **جدًّا** وعظيمة، لكن نحن شعب تعداده بالملايين،

وهناك الكثير من الرجال والشباب، والله المستعان! لا ينبغي أن يكون الثقل في التضحيات والعطاء منحصراً على البعض، ويبقى البعض بدون أن ينالوا هذا الشرف.

فالبعض من أسر الشهداء كذلك قدَّمت أكثر أبنائها، هذا مقدَّر، وهذا عظيم، وهذا مشرِّف، ومن المهم أن تتوسع حالة النهوض بالمسؤولية على مستوى المناطق، ووزارة الدفاع تتحرك، الدولة تتحرك بشكل كبير في عملية التجنيد، حتى لا تكون عملية الضغط مركَّزة على مناطق معينة، وعلى أسر معينة؛ **لأن هذا واجب الجميع، اليوم الواجب على الجميع**، هذا عدوان على كل بلدنا، ويستهدف كل شعبنا، ويريد أن يحتل كل أرضنا، ويريد أن يستعبدنا جميعاً، وهو تهديد لقيمنا وأخلاقنا ومبادئنا وحريتنا واستقلالنا وكرامتنا جميعاً، علينا جميعاً المسؤولية لنتحملها جميعاً.

واجبنا تجاه أسر الشهداء

من المهم فيما يتعلق بأسر الشهداء العناية بالرعاية التربوية والتثقيفية، والاهتمام فيما يتعلق بالجانب العملي، والرعاية المادية، مع السعي لمساعدتهم في بناء وضعهم الاقتصادي؛ **لأن** كثيراً من الأسر يمكن مساعدتها لتحقيق الاكتفاء الذاتي في بناء نفسها، **أي**: ممكن بعضهم الإعانة لهم حتى يصبحوا معتمدين على أنفسهم، يستطيعون

أن ينتجوا، يعيشون وضعاً طبيعياً، منتجين، ولديهم مصادر دَخْل... إلخ. هذه **خطوة** متقدمة، وأهم من مسألة الاقتصار على مجرد المساعدات التي تأتي بين الحين والآخر، مع الاهتمام بهذه؛ حتى تتمكن الأسر من وضع طبيعي في حالتها المعيشية.

يجب الإعانة بكل جد واجتهاد، وليس فقط مؤسسات معينة، أو مؤسسة الشهداء، أو نحو ذلك، الكل معنيون: الدولة معنية، المؤسسات الخيرية معنية، المجتمع **معني**، علينا أن نتعاون جميعاً في التعاون معهم في المساعدة، أو الرعاية المادية، والسعي لتمكينهم في بناء وضعهم المعيشي، وحتى يستطيعوا أن يكون لهم مصادر دَخْل طبيعية، مع الاستمرار في مساعدتهم في كل الحالات: عند حالة المرضى، الظروف الاستثنائية، حالات معينة اجتماعية، أوضاع معينة... في كل هذا **يجب** أن يكون هناك اهتمام من الجميع، الاحترام والتقدير لعطائهم، **يجب** أن يحظى أسر الشهداء بتعامل محترم وراقٍ ويقدر- دائماً- هذه التضحيات العظيمة.

هذه الأيام- كذلك في ظل الذكرى- يجب أن يكون هناك اهتمام بالفعاليات والمناسبات، وإبراز لهذا التفاعل المجتمعي، والتقدير المجتمعي لهذا العطاء وللأسر المضحية.

مسؤوليتنا تجاه الجرحى

بعد مقام الشهداء، هناك مقام عظيم كرتبة ثانية عند الله سبحانه وتعالى: (المعوَّقون) الذين جاهدوا في سبيل الله وأصبحوا معوقين، البعض قدم من أعضائه، البعض قدم رجله، البعض أصبح لا يستطيع أن يمشي، البعض قدم نظره، البعض قدم يده، قدم من جسده من أعضائه؛ ولأنه صار معوقًا صار يعيش وضعًا معينًا في حياته، ينقص عليه الكثير من الأمور، تضحياتهم كبيرة، تضحيات المعوقين تضحيات كبيرة وهي في المستوى الثاني بعد تضحية الشهداء، وهم في منزلة الشهداء الأحياء، لهم حق على الجميع في رعايتهم في تكريمهم في احترامهم في الاهتمام بهم، ويجب أن يكون لهم منزلة خاصة، أن يكون لهم موقع خاص في قلوبنا في نفوسنا جميعًا، وأن يدرك الكل جميع أبناء المجتمع المسؤولية تجاههم، هذا شيء مهم نذكر به[٥].

خيار الحرية.. أصل المشكلة مع العدوان!

أما خيارنا (القوى الحرة المناهضة للعدوان، المتصدية للعدوان)، بالرغم من التصعيد المستمر، ليس أمامنا خيار إلا ما نحن فيه كموقف

---

(٥) من كلمة للسيد عبد الملك بدر الدين الحوثي في الذكرى السنوية للشهيد ١٤٣٢هـ.

مسؤول وموقف حق، وموقف تفرضه علينا قيمنا، ومبادئنا، وإنسانيتنا، وديننا، وأخلاقنا، وكرامتنا.

نسأل الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أن يرحم شهداءنا الأبرار، وأن يلحقنا بهم صالحين، وأن ينصر شعبنا المظلوم، وأمتنا الإسلامية في مواجهة التحديات والأعداء، إنه سميع الدعاء...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛؛؛

***

المحتويات

أولاً:المسؤولية في الإسلام ٤

المجتمعات الملتزمة بالدين تجد نفسها في صدام مع قوى الطاغوت ٦

الإسلام يشكل حماية من تسلط الطغاة الظالمين ٨

الأمة اليوم في أمسِّ الحاجة إلى جانب المسؤولية...................... ١١

البعض يريدون إسلامًا ليس فيه مسؤولية ١٤

مساحة المسؤولية في القرآن الكريم.. ١٧

منهجية القرآن لرسول اللّه أمام استهداف الأعداء للأمة.............. ١٩

القرآن الكريم يحيي حالة النفير ويذم حالة التخاذل...................... ٢١

القعود انحراف عن خط رسول اللّه.. ٢٣

كيف هو واقع أمتنا اليوم؟ ٢٦

ثمرة مبادئ وأسس الإسلام وخطورة ضياعها ٢٨

علاقة الأمة المؤمنة بالجهاد في سبيل اللّه ٣٠

المسؤولية معيار لصدق الانتماء الإيماني.................................. ٣٦

الغربلة.. سنة إلهية عبر الزمن ٤١

التمحيص الإلهي للمؤمنين ٤٧

وليعلم المؤمنين.. وليعلم الذين نافقوا ٤٩

النفاق.. تنصل عن المسؤولية وتجرد من القيم............................ ٥٢

مرض القلوب وسنة اللّه في كشف واقعهم................................... ٥٥

الإمتحان الإلهي في مدرسة الحياة ٥٩

الطليعة الصادقة.. ٦٠

ثانياً: ذكرى الشهيد ٦٣
حاجتنا إلى هذه الذكرى ٦٣
أهداف الذكرى السنوية للشهيد ٦٤
الشهادة.. ما ذا تعني؟ ٦٥
البعض يقدم الشهادة فقط وسيلة للتمتع ٦٧
المعنى الصحيح للشهادة ٦٨
في سبيل اللّه.. الهدف المقدس للشهيد ٧٠
من هو الشهيد حقاً؟ ٧٣
الشهادة في ميزان الربح والخسارة ٧٥
الشهادة فرصة لتستثمر موتك ٧٨
المؤمن ومعادلات الصراع ٨٠
من المسؤول عن مشكلة الصراع في الواقع البشري؟ ٨٢
حتمية الصراع ضد قوى الشر ٨٥
الشهداء والمنطلقات الصحيحة ٨٨
في ظل عطاء الشهداء.. ما المطلوب منا تجاههم؟ ٩٠
سلبيات ينبغي تجنبها ٩١
واجبنا تجاه أسر الشهداء ٩٤
مسؤوليتنا تجاه الجرحى ٩٦
خيار الحرية.. أصل المشكلة مع العدوان! ٩٦

تم بحمد الله